محمد فرج المعالي

شجرةُ رضا

قصص

2024

شجرةُ رضا

قصص

عنوان الكتاب : شجرةُ رضا
المؤلف : محمد فرج المعالي
التصنيف : قصص
الطبعة : الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٤
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي

ISBN : 978-9922-8993-1-2

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤

بريد إلكتروني: **alrtyu44@gmail.com**

رياض داخل: **Facebook**

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

محمد فرج المعالي

شجرةُ رضا

قصص

٢٠٢٤

الإهداء

إلى أبي دائمًا

إلى فقيديَّ حيدر وعليّ في عالمهم البعيد.

إلى S مع كلِّ نبضةٍ، ربما نلتقي في عالمٍ

حيث تجتمع الأرواح الهائمة بلا رقيب.

إلى شخصياتِ هذا الكتاب لعلَّ شيءٌ يخفِّف

عنهم.

الحياة ليست أمًّا... إنَّها زوجةُ أبٍ

مارينا تسفيتايفا

الهيامُ نحو تخاديد

١

في قضاء السلمان-بوابة البادية الجنوبيَّة-في صباحٍ صيفيٍّ أصفر، كانت الشمس تلقي بضيائها على الأرض الجرداء، واستحالت الريحُ إلى لهبٍ غير مرئيٍّ يضرب الوجوه، فأخذت حيواناتُ تلك الأرض باللجوء إلى جحورها حيث تلبُد وتستريح بأمان بانتظار ليلٍ آخر. كان الحمار يسير بتؤدةٍ، مطأطأ رأسه مثل صبيٍّ أفَّاق، يسير هكذا بلا عزم، لكن دون توقفٍ، يقطع المسافات غير مبالٍ، يخطو بلا ملٍل لكن بحذر متجنِّبًا الجحورَ والحجارة وكثبان الرمل بقدمٍ خبيرٍ عارفٍ بتلك الأرض.

كان جبر اكثرا عنادا من الحمار، يموت أو يصل لا فرق لديه، قاصدا تخاديد، غير ابه بوحوش البادية ولا بالموت عطشا، هكذا وعد سعدة حين رآها تتبعه. (علي رؤيتها يا سعدة حتى لو مت بعدها الف مرة).

أعطته سعدة كيسًا من الخبز البائت والتَّمر اليابس، ودسَّتْ في عدل الحمار قارورة زيتِ السيارات مليئةً بالماء.

- جبر، جبر، ارجعْ إلينا، إيَّاك أن تموت يا جبر، نذرٍ عليَّ إن رجعت سالم أذبحْ لك ذبيحة لوجه الله، وارفع راية العباس على بيت الشعر.

هكذا ودعته سعدة وذرفت خلفه بعضَ الدموع. في هذه الأرض وفي موسم الصيف كلُّ شيءٍ قاسٍ وموحشٌ، وقد تتحالف الريح الحارة وأشعة الشمس الحارقة على من يقدِم على السفر راجلًا أو على دابة، فمصيره الهلاك في عالم يتألَّم تحت وطأته حتى الحجر. أدار جبر رأس الحمار نحو الجنوب وأغمض عينيه وغرق في صمتٍ مطبق. لم يهتمَّ الحمارُ لسكوت خياله الفتيّ، وأخذ يخطو بلا حسابٍ كأنَّه محكومٌ بالمسير للأبد. كان الهواء الحارُّ يضرب وجه جبرٍ حين استعادَ صورة سعدة وتذكَّر عينيها حين ترتدي النقاب، تذكَّر صوتها، ابتسامتها، لكن سرعان ما تذكَّرَ مهمَّته، فتراجع وعضَّ على نواجذه وضرب خاصرةَ الحمار ليسرعَ في خطاه.

دون رغبةٍ بالوداع، ألقت سعدة طاسةَ ماءٍ في أثره ومسحت دموعها بطرف خمارها الأزرق، وأخذت منها تلك اللحظة العاطفية شيئًا من روحها. لقد أخذ جبر كلَّ لذةٍ في الحياة بالنسبة لسعدة التي أحبَّته، ذهب وكان قلبها مشدودًا إليه يتبعه مثل ظله، ولقد سمَّياها زوجةً لجبر منذ الصبا، وكان موعد عقد قرانهما في هذه الأيام، إلَّا أنَّ جبر أصرَّ على الذهاب، وحجته في ذلك أن تحضرَ في زفافه. لكن في الحقيقة أنَّ جبر يشعر برغبةٍ جامحةٍ لرؤية أمِّه التي لم تحاول ولو لمرةٍ أن تسألَ عنه أو تطلب رؤيته، لم يرَ وجهها أبدًا، حتى عجز أن يرسم صورةً لها في خياله، ظلَّت تأتيه كلَّ ليلةٍ في أحلامه على مدار عمره الذي لم يتجاوزِ العشرين، كان يرى في المنام حلماً واحداً، لا تختلف فيه التفاصيل ولا الأماكن، فقط هي أمُّه زكية في غرفةٍ يكتنفها الظَّلام، تصرخ بوجهه: الجرو، ابن الكلب. وترفسه في خاصرته، يبقى مشدوهًا في ظلام حلمه، يتردد صدى صوتها، يهيم فيه ويضيع في أثيره. لم يرَ في حلمه ملامحَ لها، ولم يشمَّ رائحتَها، ولا يعرف هل للإنسان قدرةٌ على تذوق الروائح في الأحلام؟ يستيقظ في الصباح مثل كلِّ يومٍ فيتلمس ضلعه المكسورَ ليبعثرَ

بقايا حلمه وينهض مع ضجيج النهار ثم ينتظر ليلًا آخر ورؤيا أخرى مثقلةً بالأسى.

أخذ الحمار يخطو بلا حسابٍ آلافًا من الخطوات، وجبر غارقٌ في تيه تلك الأرض، يجمع شتات روحه، يمسح الأفق بناظريه، ويطبع كلَّ ملامحَ يراها في طريقه؛ سواءٌ أرضًا حجريةً، تلَّةً، أو أيَّ شيءٍ يلمحه. كانت السماء صافيةً فما من أثر لغيمة، والشمس بدت أقلَّ وطأةً، وأخذت بالنزول. رأى جبر غمامةً من الغبار في البعيد تقترب شيئًا فشيئًا، انقشعت الغمامة وظهر رجلٌ بشماغٍ أحمرَ وعقالٍ مائلٍ نحو اليسار، يركب فرسًا حمراءَ كلون الأصيلِ، تسير بغنجٍ وتخطو الهوينا بمزاجٍ رائق، تتراقص على أديم تلك الأرض مثل غجريةٍ أُصابها الوجدُ.

حين اقترب الخيال من جبرٍ أخذ يعدُّ خصالَ تلك الفرس الأصيلة في غياهب عقله، ركَّز قليلًا على السرج المزركش، ثم على خطمِها المصبوغ بالبياض، كان العرق ينحدر من ضفائرها الملقاة مثل ألسنةِ النار! نظر لها بإعجابٍ تامٍّ، وأخذ يتأمل قوائمها الثابتة على الأرض مثل شجرٍ بلا جذور.

كان حمارُ جبرٍ يكابر أمام تلك الفرس ليبدوَ أكثر حشمةً، رفع أذنيه وأخذ يمجُّ الهواءَ المحمَّلَ برائحة الأنوثة، ضرب بحافره على الأرض واهتزَّ لتلك الضربة قضيبه المنتصب، حاول أن ينهقَ بشبقٍ، لكنَّ جبرً عاجله بالعصا على خطمه وسكت.

نظر راكبُ الفرس لجبرٍ وحمارِه باستغرابٍ دون أن يترجَّلَ، يعرف جيدًا أنَّ السفر في هذا القيض الحارق ما هو إلَّا ضربٌ من الجنون، وعلى ظهر حمارٍ فهو الحمقُ بعينه! أراد أن يسألَ جبرًا لكنْ حالتْ دون ذلك أصولُه العربية التي تعيب السؤال قبل القيام بواجب الضيافة. طلب راكبُ الفرس من جبر أن يمسي اليومَ عندهم، وأشار بيده نحو قرص الشمس ليؤكِّدَ قربَ بيوتهم من المنطقة. قال لجبرٍ إنَّ خيامهم وإبلهم قريبةٌ من هنا، لكنَّ جبرًا أصرَّ على الذهاب وعدم التوقف. حاول الرجل أن يثنيه عن قراره، لكنَّ جبر كالجلمود. أدار الرجل رأس الفرس نحو الشمس وأخذ يهزُّ الرَّسن بيدٍ واحدة، وبعد خطواتٍ، سمع جبرًا يقول خلفه: ما اسم فرسك؟ التفت الخيَّال وابتسم على حياء: سحاب. قالها وأغارت الفرس بخيالها كأنَّها الريح.

٢

حين وجدتْ هاشمية قملةً ناضجةً بين طيات شعر ابنتِها الصغرى المنفوش كنباتِ العاقول، نجحت الحمارةُ البيضاء من الإفلات من مربطها، ممَّا دعا رويضي أن يشتمَها ويلعنَ اليوم الذي تزوَّجها به. سمعت زكية صراخَ والدها الحانق بسبب إهمال الحمارة، وخافت أن تحصلَ على نصيبها من التوبيخ؛ فبحثت لها عن عذرٍ، فلم تجد أمامها سوى كومةٍ من الملابس المتسخة، فكان ذلك كافيًا لجعلها معذورةً أمام والدها الغاضب والهروب من تلك المعمعة.

أخذت زكية كومةَ الملابس وذهبتْ مسرعةً نحو الجدول. كان الوقتُ عصرًا، ونسماتٌ باردةٌ داعبت خصلتَي شعرها الهاربتين من غطاءِ رأسها المزركش بزهورٍ ملونة. جلستْ على ضفة الجدول، وقدماها تعومان فيه بعضَ الشَّيء، وبدأت تغسل ملابسَها وتنظر لصورتها المنعكسة على ماء الجدول، فأخذت تبتسم وتحرك شفتيها الناضجتين بلون الكرز وحاجبيها المتَّصلين كسحابتين. لقد بلغت الرابعة عشر وبدت الآن مثل أقحوانةٍ متفتحة، تنبعث منها رائحة الحقول الممزوجةِ برائحة جسدها اليانع. راق مزاجُها قليلًا

ودندنت بأغنيةٍ ريفيةٍ سمعتها ليلةَ أمس في عرسِ أحد بنات القرية: (وجنك ما تسمع، بوية هنا، موش آنة أصيح عليك، بوية هنا، مو روحي تطلع، بوية هنا، والكلب ما مرتاح، بوية هنا، أوليفي راح وشال، بوية هنا).

لم تفارق خيالها صورةُ ذلك الشابِّ الذي رأته في صخب العرس، كان شابًّا طويلَ القامة ذا سحنةٍ بلون الحنطة، وله سالفان مشذَّبان وشاربٌ خفيفٌ يعتلي شفتيه الحمراوين، ينظر مثل صقرٍ، وشماغٌ أحمر ينسدل على كتفيه، وقد أمال عقاله كثيرًا إلى الجانب، يمسك بندقيته الباش ويحيِّي العريسَ من بعيد، وحين أطلق عيارين في الهواء غمزها بطرفِ عينه، وقد سرق بذلك قلبها الممحون.

كانت زكية البكر والبنتَ الوحيدة في عائلة رويضي، حيث جاء بعدها أربعةُ ذكورٍ، أكبرهم في سنِّ العاشرة وأصغرهم لم يتجاوز ربيعه الأوَّل. ترعرعت زكية تحت ظلال النخيل والأشجار، وارتشفت من مياه الجداول العذبة في أقصى الريف، حيث زقزقة العصافير وأنين الفواخت. أكملت زكية غسلَ ملابسها وراحت تعصرُ عباءتها من الماء، ففاجأها صوتُ شقيقها حيث جاء يركض وهو مرعوبٌ، يصرخ كأنَّ الموتَ يلاحقه. التفتت

زكية للصبي وأخذتها قشعريرةٌ من رأسها حتى أخمص قدميها حين سمعه يقول: زكيييية زكيييية، أبوي قتل نايف، أبوي قتل نايف. لم تستطع زكية أن تتمالَك نفسها، حاولت النهوض لكن ارتباكها أسقطها على وجهها، صرخت خلف شقيقها الذي انطلق كالسَّهم: ولك يا نايف هذه. قال الفتى دون أن يلتفت: ولج نايف المخبِّل. واختفى بين النَّخيل.

عاد رويضي منهكًا وقد أخذ التعبُ منه مأخذه، فقد خرج من الصباح الباكر وعمل على سقي البستان وتشذيب سعف النخيل، وكان موسم تلقيح النخيل في بداياته. اعتاد رويضي حين يعودُ من العمل أن يذهب مباشرةً ليتفقد حضيرةَ الأبقار، إذ يخاف أن تكون أم زكية قد أهملت وضعَ العلف أو ملْءَ الحوض بالماء، ثم يذهب بعد ذلك نحو الجدول ليتوضأ تحضيرًا لصلاة المغرب، لكن رويضي لم ير الحمارةَ البيضاء في مربطها؛ ما دعاه للصراخ، وقد حذَّر آل بيته جميعًا بعدم تركها طليقةً.

أخذ يبحث بين الأشجار وقد توعد أمَّ زكية وأبناءها أن يلقِّنهم درسًا لن ينسوه، وبدأ يطلق الشتائم، ثم أخذ يقتفي أثرها. يعرف جيدًّا أين يجدها، فقد اعتادت الهربَ

والـذهابَ لحقـل الـذرة، وبالفعـل كانـت هنـاك، لكنَّهـا لـم تكن تأكل أوراق الذرة فقط بل كانت تُغتصب أيضًا. إنَّ ما رآه رويضي لـم يكـن أمـراً عادياً، كـان انتهاكًا صـارخًا على كرامته وشـرفه، واعتـداءً سـافرًا. كـان نـايف يغتصـب الحمـارةَ بـدمٍ بـاردٍ رافعًـا دشداشـته القـذرة فـوق صـرَّته، يتحرك ببطءٍ واسترخاءٍ. كانت الحمارة تلوك أوراق الذرة على مهـلٍ غير مباليةٍ بقضيب نـايف المنتصـبِ وخصـيتيه بين قائمتيها الخلفيَّتين.

لـم يستطع رويضـي السيطرة على أعصـابه بعـد رؤيتـه شـرفَه يُراق على الأرض، ما جعله يصـرخُ صـرخةً مدويةً جعلـت نـايف يمـوت ألـفَ مـرةٍ مـن الرعـب، ويقفـز مثـل أرنبٍ مذعورٍ، ولم يستطع رفع لباسه. بدأ يركض باتجاه بيـتهم ويصـرخ مسـتنجدًا بأخيـه فرحـان لإنقـاذه، كـان رويضـي يـركض بحقـدٍ ويتوعـد نـايفَ بالقتـل. تعثَّـر نـايف بلباسـه وسـقط علـى محـراثٍ حديـديٍّ قـديمٍ فشُـجَّ رأسـه ومات على الفور.

٣

عندما حلَّ الغروبُ وصل جبرٌ تخوم الصعرسية، وهي أرض غير مستويةٍ، نباتُها شيحٌ وكيصوم. أحسَّ جبرٌ بالتعب والإعياء، فقد كان سير الدابة بطيئًا، وضربُ الرياح أُصابه بالدوار، فترجَّل عن الحمار وأخذ يمسح المكان بناظريه، ثم أنزل العدلَ واستلَّ من جنباته قضيبًا حديديًّا غرسه بالأرض وربط حماره، أنزل بندقيته المطموسة من ظهره، ورما بنفسه على الأرض. حاول ألَّا ينام، إذ كان يخشى النوم؛ فما إن يغفو حتى يغرقَ في لجِّ كوابيسه، فقد كانت الأحلام تطارده في نومه. كان يرى أمه في منامه، يرى أنَّها بلا وجهٍ، كائنٌ أسطوريٌّ عنيفٌ، تحاول ذبحه، تطارده، تضربه في خاصرته، لم ينمْ ليلةً هانئةً منذ زمن، لكن اليوم جبر كان متعبًا وقد نام بعمقٍ ولم يحلم بأمِّه، ومع ذلك فأصوات عواءٍ تملأ رأسه.

فزَّ من نومه مرعوبًا، وألقم بندقيته سريعًا، وأخذ ينظر في كلِّ الاتجاهات، قد حلَّ الليل وبدت السماءُ زاخرة بالنجوم، والقمر حلَّ بضيائه جاعلًا البادية واحةً من الفضة. أحسَّ بالجوع والعطش، تناول رغيفًا من الخبز وشرب الماء، لكن صوت العواء أخذ يرتفع، وهو يعرف جيدًا أنَّ الذئاب تطوف في الجوار، وقد اعتاد على هذا،

فأطلق رصاصةً في الهواء أسكتت الذئابَ للحظةٍ، ثم أخذ الصوت بالابتعاد. نهض وعلَّقَ كيسَ العليقة برأس الحمار، كان مليئًا بالشعير، وبعد ساعةٍ نزعه وأخرج قدرًا صغيرًا وملأه بالماء، كرعه الحمار خلال برهةٍ من الزمن.

عليه أن يصل غدًا منطقة أم دويح قبل انتصاف النهار حتى يتزوَّدَ بالماء والعليقة للحمار، فثمَّة بعض البيوت تسكن وترعى على تخوم تلك المنطقة. مع أول تباشير الصباح انطلق جبرٌ على ظهر حماره بعنادٍ ودون أن يلتفت. تخيَّل وجه سعدة وعينيها الألقتين الواسعتين، تذكر ابتسامتها حين تنظر إليه باستحياءٍ، تذكر حين قالت سعدة مرة إنَّها تحلم به كلَّ ليلة، وعندما كان يحاول أن يستدرجها لتحكي له حلمها لكنَّها تطأطئ رأسها باستحياءٍ وتهرب.

٤

انتهت حميدة من الخبز وصاحت على سعدة لحمله، وحين رأت عيناها مغرورقتين بالدموع، تأفَّفت وحاولت لملمةَ روحِ سعدة المتكسرة: يمَّة لا تبجين، إلي مقسوم إلج ما يروح. كانت سعدة تعي جيدًا أنَّ رحلة جبر في هذا القيض انتحارٌ وموتٌ محقق، ولم يكن لأحدٍ سبيلٌ

على صده. والحقيقة أنَّ حميدة أرادت ذلك أيضًا فلم تعد تحتمل، وقد حاولت كثيرًا إقناعَ جبرٍ بنسيان أمِّه، وكانت دائمًا تذكره برميها له حين ولادته وكيف رفسته في خاصرته، وكذلك جدته، فقد كانت تعتقد أنَّه سوف يموت إثر تلك الضربة بعدما تورمت أضلاعه، ولذا حاولت مرارًا ثنيه عن ذكرها وعدم البحث عنها، وحين يشتد بها الحالُ والجزع تصرخ في وجهه: ولك أنِّي أمَّك، أنِّي الربيت، ولك زكية الجلبة ما تنوعت بوجهك يمفلوك. لكنَّها عبثًا تحاول.

كان جبر يحيا مع كابوسِ أمِّه ويتنفس اسمَها: زكية، زكية، في صحوه زكية، في منامه زكية، حتى حبُّ سعدة المتجذر في قلبه وفي أعماق روحه لم يثنِ عقلَ جبرٍ من الهيام بأمِّه. لم تنم سعدة تلك الليلة، كانت تبكي وتقرأ آياتٍ من القرآن وأدعيةً سمعتها من أمُّها، كانت تتلو ما تعرفه وما لا تعرفه، كلُّ شيءٍ تعتقد أنَّ له منفعةً، نذرت أكثر من نذرٍ، وتمسكت بجاه الأئمَّة وأولياء الله ليحفظوا لها جبرًا من شرور الدنيا ويرجع لها بالسلامة.

وحين استيقظت حميدة وشاهدت سعدة ساهدةً وتولول مثل ثكلى، انتفضت من فراشها وذهبت نحو الصندوق الحديديّ قرب عمود الخيمة، وأخرجت منه

لفافةَ قماشٍ خضراء، وأخذت قبضةً من تراب قبر الإمام الحسين، وضعته في طاسة ماءٍ وسقت ابنتها سعدة وغسلت وجهها، وكانت تدعو الله وترجوه أن يُدخل السكينة على قلب سعدة وروحها.

وضعت سعدة رأسها في حجر أمِّها ونامت مثل طفلةٍ رضيعة، وحلمت أنَّها في عرس وجبر يأخذ بيدها وسط جمعٍ من النسوة، وكانت تلبس ثوبًا أبيضَ وسط ضجيج الهلاهيل والأهازيج، ثم تدخل قطبةً بيضاءَ صغيرةً، فيها فراشٌ قطنيٌّ وعليه ملاءةٌ بيضاءُ أيضًا. كان جبر في حلمها بعقالٍ وشماغٍ أحمرَ جديدٍ ودشداشة بيضاءَ كالثلج، يُدخلها القطبةَ ويقبّلُها على جبينها ثم على شفتيها، كانت تحلم أنَّها تضع رأسها على صدره وتسمع دقاتِ قلبه الممحون.

٥

لم تعد زكية تلك الأقحوانة المتفتحة الطافحة بالأنوثة، أمستْ تجلس منطويةً على نفسها، يتسرَّب القلق إلى روحها الشفِّيفة مثل سائلٍ أسود، لم تعد تأكل ولا تضحك ولا تكلم أحدًا إطلاقًا، فلم يعد للأكل طعمٌ ولا للكلام منفعةٌ، حتى النوم الملاذ الوحيد للمقهورين تخلى

عنها، ولم تعد تحصل على غفوةٍ، وحتى إن أحسَّت بنعاسٍ تُسارع إلى طرده من رأسها، شبحُ فرحان يلاحقها حتى في الحلم، وعندما تطفئ أنوار الغرفة يتراءى لها مصيرها المحتوم على شكلِ بخارٍ رماديٍّ يكتم على أنفاسها.

كانت تفكر وتفكر حتى توقف عقلها عن التفكير، فكرت كيف تكون زوجةً لفرحان الأهبل، ذلك الثور المعتوه، الذي لا يعرف شيئًا سوى العمل والأكل، ما ذنبها أن تكون فصلًا، وتذهب ديةً لناسٍ غرباءَ كبهيمةٍ للذبح؟! وماذا عن قلبها وعن العشق وعن الحياة؟ ماذا تقول عنها فتيات القرية؟ حاولت أمُّها جاهدةً إقناعها أن ترضى بقسمتها، وتحاول زرع بعض الأمل في روحها المجروحة، لكنَّها عجزت عن ذلك، وسلَّمت أمرها وابنتها لله.

فكرت كثيرًا بالانتحار وعن طريقةٍ معينةٍ لإنهاء حياتها، حاولت مرةً أن ترمي بنفسها في النهر، لكنَّها تخاف الماء وترتعب حين ترى وجهها ينعكس على سطح النهر، فيخُيِّلُ لها أنَّ الدماء تخرج من عينيها ومنخريها فتتراجع على الفور، وتحاول إيجادَ طريقةٍ

أخرى، وحاولت مرةً أن تحصل على بندقية والدها لكنَّها لم تجدها.

كان فرحان قد تعدى الثلاثين من عمره، وكان هاربًا من الجيش، طويلٌ وضخمُ الجثة، كان قويًّا بما فيه الكفاية لهزيمة ثورٍ يافع، أسمر الوجه وكثيف الشوارب، يعمل على حراثة الأرض، صامتًا دائمًا، يعمل بصبرٍ مثل بغلٍ، وحين يعود إلى بيته لا يلوي على شيءٍ سوى الأكل. كان وحشًا كتومًا، لكن تصرفاته اليومية البلهاء تشي عن مخلوقٍ ساذجٍ وقويّ مثل آلة.

عجزت أمه عن إيجاد زوجةٍ له، إذ لم ترضَ به جميعُ بنات القرية، من تلك المخبولة التي تتزوج بهذا العملاق الذي تسيّرهُ العجوز أمُّ فرحان كيف تشاء؟! كان وجود زكية في بيت أمّ فرحان فصلًا عشائريًّا عن قتل ابنها، وفيه شيء من التعويض عن خسارتها الأليمة، وبذلك حصلت على زوجةٍ لفرحان، واستجابت لهذا الأمر بطيب خاطر، لا بل بكلِّ ترحيبٍ، إلَّا أنَّ فرحان أراد ألَّا تُعكرَ حياته الرتيبة الخالية من المنغصات والمسؤولية، ولكنه لم يستطع رفضَ ما أمرت به العجوز أم فرحان، وقبِلَ بذلك صاغرًا. بعد انقضاء أربعين يومًا على موت نايف، قام رجلٌ محايدٌ من القرية بأخذ زكية وفرحان لرجلِ دينٍ في

القرية المجاورة وعقد قرانهما، كانت زكية صامتةً، ولم تنطق بكلمةٍ سوى ما قالته لرجلِ الدين حين وجَّه لها سؤاله: (زوَّجتكِ موكلي فرحان آل حميد...، هل قبلتِ؟ لم تجب، فقط هزَّتْ رأسها على مضض. لم يوافق رجلُ الدين وأعاد عليها السؤال، قالت: نعم. مثل غصةٍ مكتومة، كأنها ألقمت حجرًا في حلقها. دخل فرحان بيته يسوق زكية أمامه مثل شاةٍ سيقتْ إلى الذبح، كانت تنحب، وحين رأت العجوز أمَّ فرحان تجلس حانقةً وعيناها تلمع وتنظر لزكية بتشفٍّ وحقدٍ مشتعل، أخذت زكية ترتجف ثم أغمي عليها وسط الدار. أيقظتها العجوز أمُّ فرحان وراحت تسبُّ: رويضي، بغلٌ وحقودٌ، النذل لا يخاف الله، قتل ولدي المسكين، أحرقكم الله في نار جهنَّم جميعهم. واستدارت ناحية الباب وأخذت تلطم صدرَها وتنشد: (أنَّة والدريول من الصبح نمشي، هو يسوق وآني من وراه أبجي، إلك دينار بس ذبني على قبر ابني). حاول فرحان التقرب من زكية لكنَّها اعتكفت في غرفتها ولم تعطِه أي فرصةٍ، حاول عدة مراتٍ لكن عبثًا يحاول، فقد أصبحت زكية مثل قطةٍ مسعورة تكشِّرُ عن أنيابها وتضمُّ ساقيها إلى بطنها وتغلق كلَّ الطرق بوجه فرحان الذي عجز عن اختراق دفاعتها. بعد أسبوع من

ذلك، قالت العجوز لفرحان: الليلة يجب أن تفعل كما يفعل الرجال. وأقسمت بالله وبالسيد ناصر أن تخرج للقرية وتقول إنَّ فرحان أنثى وليس برجلٍ، وسوف تشتري له عباءةً سوداءَ. جعلت من فرحان بركانًا مشتعلًا، وخرج يتوعد زكية، إن لم تستجيب له سوف يمزقها مثل ورقة. وحين أقبل الليلُ، دخل فرحان لغرفة زكية، مزَّق ثوبها ورماه جانبًا، لطمها على وجهها ثم أمسك بها من شعرها، وانكبَّ عليها مثل ذئبٍ مفترسٍ، غرز رجولته بدون أدنى رحمة ولا شفقة حتى أخذت تسبح بدمائها مثل حمامةٍ جريحة.

٦

في ظهيرة اليوم التالي، وصل جبرٌ منطقةَ أمِّ دويح. لقد أرهق القيظُ الحمارَ وخياله، كانت الشمسُ تسطع على رؤوسهم بقسوةٍ وتجلد أجسادَهم بسياطها الساخنة، والأرض الجرداءُ تلفح أقدامَهم بفحيحها الحار. لم يرَ جبرٌ في طريقه كائنًا سوى ضبٍّ لبَدَ تحت شجرةِ جداد يابسة. أخذ جبر يجرُّ حماره جرًّا، إذ لم يعد المسكين قادرًا على حمله، أخذ يسير بخطى قصيرة ومترنحة، ولم يستطع رفع رأسه الثقيل ولا أذنيه اللّتين تبدوان الآن

كجناحي طائرٍ، على عكس جبر الذي يخطو بحرقةٍ رغم جفافِ حلقه والتصاقِ لسانه اليابس.

أخذ العطش منهم مأخذه، لقد كرع الحمار ماء قارورة الزيت في أول الصباح، ولم يجد جبرٌ في طريقه أحدًا من سكان البادية، لا رعاة أبلٍ ولا غنم، لكنَّه يعرف جيدًا أنَّه الآن في أمِّ دويح لابدَّ من وجود عربٍ يسكنون المنطقة، فلقد رأى نباتَ الجداد والعلندة والغدرك بكثرة. أخذ جبرٌ يسير بعنادٍ أكثر ويسترجع كلماتِ سعود الراعي وأخيه فهد الأجدع حين ينعتوه بابن الدرعة، فتتكون في أحشائه صرخةً تحاول الصعودَ إلى حلقه لكنَّها تصطدم بأسنانه ولسانه المتخشب لتعودَ نحو جوفه متكسرةً تلملم نفسها مرةً أخرى للصعود والمحاولة، وهلمّ جرًّا بلا فائدة. صرخةٌ تحاول أن تخرج وتنتشر في الهواء وتعلن عن اسمِ زكية المحبوس في أعماق جبر، ابن الدرعة يتذكرها جبرُ كأنها دودةٌ خبيثةٌ تأكل صوان أذنه. نعم، لقد شرب من حليب الدرعة ولم يتذوق حليبَ أمه، ابن الدرعة يجعل من جبرٍ كائنًا يسير بلا كللٍ أو ملل، ينطلق مثل حيوانٍ مفترس. بعد مسير نصفِ ساعةٍ بدأ جبر يشمُّ رائحة دخان، كانت بشارة خيرٍ، فثمَّ عربٌ على مقربة من هنا، وعرف أيضًا أنهم رعاةُ إبلٍ، لقد كانت رائحة الدخان

التي اشتمَّها قد جاءت من اشتعال روث الإبل، فثم تنورٌ في الجوار. رأى جبر ربوةً على يمينه، حاول الذهابَ نحوها لينظر المنطقة جيدًا، لكن الحمار توقف ونبتت حوافره في الأرض مثل مساميرَ، حاول جبر إجباره على المشي لكنَّه فشل، تركه وصعد الربوة، فرأى بيتًا ذا أربعة أعمدة وسيارة حوضية تقف أمامه، تنفس الصعداء وانطلق نحوه. وجدَ امرأة ملثمة تجمع شيئًا من العشب اليابس، وحين رأت جبرًا دخلت البيت على الفور وخرج رجلٌ كهلٌ يتكئ على عصا طويلةٍ، رحب الرجل بجبرٍ على الفور وأشار له أن يدخل الربعة، ولم يستطع جبر الكلام، فقط اكتفى بإشارةٍ من يده على طلب الماء. أومأ الرجل برأسه لجبر ودخل المحرَمَ، وجاء بطاسةِ ماء. كانت الربعة مفروشةً بفرشٍ صوفي، في طرفه الأيمن كان الوجاغ تلمظ جمراته وتلفح دلالَ القهوة، وعلى يسار الربعة كان الكاطع الفاصل عن المحرم، وفي وسط الربعة حيث جلس جبر يتكئ على الشداد المزين بالجلد والمسامير. خرج الرجلُ وجاء بصينيةٍ صغيرة فيها طاسةٌ من حليب الناقة وأرغفةٌ من الخبز الأسمر، أكل جبرٌ رغيفَ خبزٍ وكرع طاسةَ الحليب، ثم نظر للرجل الأشيب أمامه وقال وعلاماتُ ارتواءٍ قد بانت على وجهه: يكثر

خيركم. ردَّ الرجل الأشيب باستحياء: صحة وعافية. ثم أردف جبرٌ حين وقف: دابتي حرنت يا عمي من العطش، أروح أوردهة. حاول الرجل مع جبر وطلب منه المبيت، شكره جبرٌ وذهب نحو الحمار خلف الربوة، رواه من ماء الرجل البدوي وحصل على عليقةٍ تعيد للحمار طاقتَه، وملأ قارورة زيت السيارات ذات الخمسة لترات بالماء وانطلق، إذ عليه أن يبيت في أرضٍ تُسمى جال الساعة.

٧

حبلت زكية في ليلتها ونبتَ زرعُ فرحان في بطنها مثل عشبِ اللَّبلاب، وبدأ ينمو بعناد.

جاء خبرُ الحمل على قلبِ العجوز أمِّ فرحان مثل الماء البارد، وأخذ شعورُ الهيبة يكتسح رأس فرحان الكبير، وكان لكلماتِ العجوز وقعٌ كبيرٌ على قلبه حين ربتَتْ على رأسه وقالت له: أنت فحلٌ مثل أبيك. تحمل تلك البذرة زكية مثل درنٍ خبيثٍ، كائنٌ غيرُ مرحَّبٍ به، لا تعرف سبيلًا للخلاص والإفلات من قبضته، وقد أخذت الأفكار السوداوية تعشِّشُ في رأس زكية فقررت قتلَ جبرٍ في بطنها، لكنَّ جبرًا لا يموت أبدًا، ولم تنفع معه كلُّ المحاولات لإجهاضه، فقد فعلتْ كلَّ شيءٍ؛ قفزت من

فوق الجدار الطينيّ عشراتِ المرَّات حتى أُصابها نزيفٌ حادٌّ، فرحت كثيرًا لرؤيتها للدَّم يسيل من بين ساقيها، لكنَّ جبرًا صمد أخيرًا ولم يسقط، أخذت تحاول مرةً أخرى ولكن بطرقٍ مختلفة، فوضعت طاقَ الرَّحى الحجريّ على بطنها ليلةً كاملةً حتى كادت تختنق، ثم بدأت تبتلع أي نوعٍ من الحبوب وتشرب أيَّ عقارٍ تراه أمامها، لم ينفعها بشيءٍ ولم يحرك جبرًا في بطنها قيدَ أنملةٍ، نامت على بطنها ليالٍ كثيرة وحملت أثقالًا تعجز عنها الحمير، ثم أخذت آخر مناورةٍ لها بعدم شرب الماء لعلَّ جبرًا يموت عطشًا، وبعد أيام كادت أن تهلك إلا أنَّ زوجها فرحان أجبرها على شرب الماء أخيرًا. كان جبرٌ يكبر في بطن زكية مثل محارب، لقد قهر الموتَ وتشبَّث بالحياة كما الأشجار حين تضرب جذورُها أعماق الأرض وتقف بصلابةٍ أمام الريح الهوجاء والعواصف، وحين أكمل شهوره التِّسعَ جاء زكية المخاضُ وقبض عليها بمخالبَ حديديةٍ. في ليلةٍ كثيفةِ الظلام، بلا قمرٍ، كان الفانوس خاليًا من النفط، صرخت زكية بعمقٍ، وظلت تصرخ كأنَّها تحاول إعادة تشكيل العالم بصراخها، لم تكن تلد فقط، بل كانت تلِد، تحاول تمزيقَ سكون هذا العالم القميء. كانت صرخاتُ زكية ترجمةً

لبؤس البشر، وتحذيرًا من المجيء لهذه الحياة، كانت تصرخ بوحشيةٍ، وتدفع بلا هوادةٍ لطرد المخلوق الصغير خارجًا، هذا الذي يضرم الجحيمَ في أحشائها. كان الجنين يخوض معركةً مع زكية، والتي سوف يكون فيها الخاسرَ الأكبر، كانت العجوزُ تنتظر خروجَ حفيدها على نار، وها قد خرج رأسه الصغير أخيرًا وأخذ صوته بالارتفاع، أخذ يعلو نحو السماء، ثم سقط على رأس زكية مثل مطرٍ بركانيٍّ يطبق على أنفاس الكائنات. بكى المولود بحرقةٍ وبندمٍ فرفسته زكية عنها وقامت تترنَّح، تلقَّفته العجوز وقطعت حبله السريَّ بسكينٍ صدئٍ وشدَّته بخيطٍ من الصوف. عندما سكت المولودُ عن البكاء أخيرًا، سكت فرحان أيضًا، لكن إلى الأبد، إذ تمَّ القبضُ عليه وأُرسل إلى جبهات القتال، فقد اشتعلت الحدود بين العراق وإيران وكان فرحان قطعةً خشبٍ تُضاف للحريق البشري المستعر، سقطت قذيفة مدفعٍ بالقرب من فرحان ورفاقه وجعلت منهم خليطًا من اللحم المحترق والتراب الأسود، جاء خبر استشهاد فرحان كالماء البارد على قلب زكية، فأخذت تبتسم، وليس هذا فحسب، بل حين تكون وحيدةً تضحك بهستيريا. لم تلبس الأسود على فرحان

ولم تنتظر أكثر من ثلاث أيام، إذ أخذت ملابسها ورحلت لبيت أهلها.

٨

أخذت أم فرحان تسقي الجنينَ بجرعاتٍ صغيرةٍ من مخلوطٍ عشبيٍّ اعتادت النسوة على إعطائه للرضع، كانت مجبرةً على ذلك، فلم يتناول الرضيعُ قطرةً من الحليب منذ ليلة أمس الأول. كان بيت أمِّ فرحان يضجُّ بالنساء المتَّشحات بالسواد اللواتي جئْنَ من القرى المجاورة للعزاء، فالمسكين فرحان استشهد يوم وُلد رضيعُه على الحدود العراقية الإيرانية.

قالت أم صاحب حين انخفض صوتُ النياح وأخذت مراسم اللطم بالفتور: موش كلب عدهة، صخر إلِّي تعوف ضناها وتمشي. أكدت على ذلك امرأةٌ كانت تلفُّ سيجارةً من كيسٍ مطرزٍ بالنمنم. وأشارت أخرى كانت تلملم أسمالها للنهوض أن تعطيه من حليبِ الغنم أو البقر لكن يجب تخفيفه بالماء. صرخت أم نعيم من أقصى الغرفة أنَّ لديها نعجةً درعاءَ نذرت وليدَها للسيد ابن الكاظم وسوف تعيرُها لأمِّ فرحان لتسقيَ المولودَ من حليبها. شكرتها شقيقة فرحان التي كانت مستلقيةً على

الأرض منهكـةً مـن اللَّطـم والبكـاء، وأخـذت تنحـب وتدمدم: ضلِّيت بلا أخو ولا والي يمَّة. وبدأ نشيجُ النسوة يرتفـع مـن جديـد. مسـكينة أم فرحـان قُتـل ابنُهـا نـايف المهبول كما تسمِّيه قرية النواجي على يدِ رويضي والآن ذهـب فرحـان خلفه، لكـن على شـكل قطعِ لحـمٍ محترقةٍ غير متناسقة، لم يكن سوى عودِ حطبٍ في معركةٍ لا ناقةَ له فيها ولا جمل. أخذت العجوز تربيةَ الطفل على عاتقها رغـم عمرهـا الـذي تجـاوز السـبعين، قمطَتْـه بيـديها المرتجفتين، وسقته من حليب الدرعة المخفَّف بالماء، اختارت له اسمَ جبر، فلقد جبرها اللهُ عوضًا عن ولديها المقتولين، عاش في كنفِ جدَّته ثلاث سنين، وارتشفَ مـن حليـب الدرعـة ومياه جـداول قريـة النـواجي، لكـنَّ الأقدار لا تمهـل أحـدًا ولا يضـلُّ حجرٌ على حجـر. لـم تستطع أمَّ فرحان إكمالَ المسير، فلقد قتلها النياح والقهر على ولديها وماتت، ولـم يتبـقَّ لجبرٍ سوى عمَّته حميدة التي تزوجت في البادية، حيث تزوَّجت رجلًا يبحث عن وريـثٍ لغنمه، فلم تنجب زوجته الأولى، ما دفعه لأخذ حميـدة علَّهـا تـأتي لـه بـراعٍ جديـدٍ لغنمه، وفعـلًا جاء لـه الراعي لكن ليس من بطن حميدة، بل جاء منبوذًا بلا أمٍّ ولا أبٍ، أنجبـت حميـدة حـين وصـل جبـرٌ فتـاةً أسـمتها

سعدة، وحصلت على بعض الرضا من زوجها بدر حين أنجبت له فتاةً، وجاءت بولدٍ، لقد تأملَ خيرًا وحصل على من يهتمُّ بغنمه.

٩

حلَّ الغروب على جبرٍ وحماره في منطقةِ الساعة، فقد كان هناك عدةُ خيامٍ لرعاة غنمٍ، فتنفَّس جبرُ الصُّعداء عند رؤية ذلك، إذ سوف يبيت الليلةَ عندهم. لقد بدا قريبًا على أمِّه، وسوف يصل غدًا لتخاديد عند الزوال إذا اجتهد حمارُه وسار في الاتجاه الصحيح. آه يا زكية، أمي. تنهَّد جبرٌ حين ذكر اسمها، وقفل على الخيمة الأولى، نبحت عليه كلابُ رعاة الغنم، فخرج أحد الرعاة ورحَّب بجبر، ربط حماره أمام البيت ودخل. قام الراعي بواجب الضيافة وقدَّم ما تيسَّر من الطعام لجبر وأحسن له الفراش للنوم، فقد كان جبرٌ منهكًا ولا يلوي على شيءٍ سوى النوم. لكنَّ النومَ بالنسبة لجبرٍ حربٌ، حربٌ تختلف عن باقي الحروب، النومُ بالنسبة لجبرٍ صراعٌ متكررٌ ومتشابهٌ كلَّ ليلة، حربٌ بينه وبين أمِّه زكية. استسلم جبرٌ للنوم على الفور وغطَّ في سباتٍ عميق.

كانت المرأة تصرخ بألمٍ وحرقة، صراخٌ يشي للسامع بأنَّها تُقطَّع إلى أشلاء. الظلام يكتنف المكانَ، وقد بدأ جبر يتنفس بسرعة. زاد صراخ المرأة ففتحت فخذيها أكثر، أطبق الظلام على الغرفة الطينية، خفقت الأصوات مثل خفافيش مرعوبة، تقلَّب جبرٌ على فراشه وبدأ يتعرَّق. خرج رأس الطفل، عوتِ المرأةُ مثل ذئبة، أخذت تشتمُ: الجرو، ابن الكلب. تحرَّك جبرٌ في منامه، وبدأ يتلقف الهواءَ مثل مسلول. غرقت الغرفةُ الظلماء بالدم ورفست المرأةُ طفلها في خاصرته، وكسرت أضلاعه. فزَّ جبرٌ وكرع طاسةَ ماءٍ كانت إلى جانب وسادته ثمَّ خرج من الخيمة. الليلُ يهيمن على المنطقة المقفرة، نُدَفُ غيومٍ تحتشد في السماء تحجب النجومَ ونورَ المجرات. بدأ جبر يهدأ وينتظم تنفسه شيئًا فشيئًا.

اعتاد جبر على رؤية ذلك الحلم، ولم يعد للنوم مرةً أخرى، لملم أشياءه وملأ قارورة الزيت بالماء من برميلٍ أمام الخيمة وقاد حماره باتجاه تخاديد، حتى الراعي لم يعلم أنَّ ضيفه أخذه الهيام وخرج قبل الفجر.

١٠

بعد ولادةِ جبر بأشهرٍ تزوجت زكية وشاء القدرُ أن تذهب للبادية أيضًا، بعد ترمُّلها وافقت على أول خطيب، حتى وإن كان راعي غنم، وأن تذهب لذلك الفلا مثل منفيةٍ. لقد كانت زكية تحاول التملصَ من ذكرياتها وتؤثر الابتعادَ والهروب، فقد كان القدر عديمَ الرحمة معها أثناء تلك المراهقة اللهوف للحياة، لقد أمعن في إيذائها، فساقتها أقداره الجبارة على الزواج من رجلٍ أكبر منها سنينًا، وغريبٍ عن طباعها، وكان رجلًا خاليًا من أي عاطفةٍ أو مودة. عاشت تسعة أشهرٍ بصيغة فصل (ديةٍ)، عبدة بنظامٍ مختلف، تسعة أشهرٍ تحت نيرِ العجوز أم فراحان القاسي وكيل السباب والشَّتائم، عاشت زكية أسوأ أيام حياتها مع فرحان الذي كان يغتصبها أكثر من مرةٍ في اليوم. عذابٌ يسوقه عذابٌ آخر، أحلامٌ جميلةٌ وطموحاتٌ ملونةٌ ذهبت كلُّها أدراج الرياح، تحملت زكية ذنبًا لم تقترفه، ووزْرًا لم يكن عليها حمله. تزوجت زكية مرةً أخرى كتعويضٍ عن تلك الخيبة، ذهبت نحو الصحراء وتركت خلفها كلَّ الشرور. حين حبلت بجبرٍ كان ذلك عقابًا آخر لها، تسعة أشهرٍ وهي تحمل خيبةً

جديدة، كانت تحمل شيئًا من فرحان الذي تكرهه، تحمل ابنَه الذي أمست تكرهه أيضًا قبل أن يأتي الحياة.

لقد عوضها الله مع زوجٍ آخر وأطفالٍ جُدد وأرض رحبة، فيها عيونُ الماء الحلوة، وسماءٌ زرقاءُ وفضاءٌ رحب، هناك في تخاديد في تلك الأرض عاشت زكية تغسل الرياحُ روحَها وتطهّرُها من ذكرياتها، وعلى أرض تخاديد دفنت زكية كلَّ عوالق وذكريات أم فرحان وفرحان وما يتعلق بهما، ولا تعلم أنَّ جبرًا ذلك الطفل المنبوذ والمطرود من مساحة قلبها جاء اليوم على تخوم تخاديد. لقد أخذه الهيامُ بأمِّه وذاب في رؤيا وجهها، لا تعلم زكية أنَّ جبرًا حمل روحه بين كفيه وجاء قاطعًا تلك الأرض الجرداء مخاطرًا بنفسه، ناذرًا روحه، يصل أو يموت لا فرق لديه، يجوع أو يعطش لا يهم. يسير بعزمٍ وإصرار مثل طالب ثائر، يتمتم باسم زكية مثل صلاة أو تعويذةٍ تُبعد عنه وحشةَ الصحراء وعطشَ القيض القاتل.

١١

منذ يومين وسعدة تجلس صامتة، وتحول صمتُها شيئاً فشيئاً إلى حزنٍ كثيف مثل ضباب. لم يعجب ذلك حميدة وزوجها وأخذ الرعب يملأ قلبهما خشية أن تُصاب سعدة

بمكروهٍ إثر حزنها العميق على جبر. كانت سعدة تخرج كل دقيقةٍ خارج الخيمة وتمسح الأفاق بحثًا عن رؤيا شبح جبرٍ لعلَّه يأتي من أحد الاتجاهات. لم تسكت حميدة أيضًا، ولم يكن جبرٌ رخيصًا عندها أيضًا، فأخذت تهزُّ كتف زوجها وهي تبكي وتطلب منه أن يذهب ويبحث عنه. لم يجد والد سعدة عذرًا، فلقد عاش جبر تحت رعايته وأصبح مثل ابنه، وما يزيد على ذلك حزنُ سعدة ودموعها التي تحولت إلى رصاصٍ يصيب قلبَه. أطرق برأسه نحو الأرض وأخذ يفكر، عليه أن يذهب لقريبٍ له لديه سيارة تستطيع أن تحملهم لاقتفاء أثر جبرٍ وإنقاذه من مصيره المجهول. طلب والد سعدة شماغه وعباءته ونهض بحزمٍ وغادر الخيمة. صاحت سعدة خلف والدها وطلبت أن ترافقهم، فلم يلتفت لها، ثم توقف وأشار لها بالموافقة. لبست سعدة عباءتها والبرقعَ وذهبت مثل حمامةٍ خلف أبيها، وقفت حميدة أمام الخيمة ورفعت كفيها نحو السماء، وأخذت تدعو الله ألَّا يكسر قلب سعدة بجبرٍ.

١٢

وصل جبرٌ تخومَ تخاديد وحيداً، فقد مات حماره قبل ساعاتٍ؛ حيث أنهكه العطش ونخرت حوافره الحجارة المسننة، لكنَّ جبرًا قطع الطريق مثل نصلٍ حادٍّ يشق لحماً طرياً. حين رأى عيون ماء تخاديد الحلوة ابتسم، وتنفَّس الصعداء، فاليوم سوف يلتقي أمَّه زكية التي أحبَّها قبل أن يراها، زكية التي عاشت في قلب جبر مثل مرضٍ عضالٍ مضى في روحه وقوَّض كيانه. أخذ جبر يسيرُ على أديم تخاديد بخطىً مترنحة، فقد أعياه التعب وسيلان العرق، ولم يكترث للتراب الذي يغطي وجهه وملابسه. بعد ساعةٍ من المسير التقى جبر براعي غنمٍ، فسأله عن تواجد بيت زكية الذي علم اسمَ زوجها من قريبٍ لهم، أشار له الراعي باتجاه الغرب وقال له إنهم في شعيب خلف بئر الماء المالحة. بدأ جبر يرتعد، فكلَّما اقترب أكثر باتجاه أمِّه تنتابه رجفة ويطبق شيءٌ ما على قلبه. دخل أرض الشَّعيب وكانت الأرض مليئةً بالعشب اليابس، سار قليلًا حتى لاح له بيتٌ بثلاثة أعمدة وأمامه امرأةٌ توقد تنورها المشتعل بالحطب. كانت زكية قد بدأت تخبز، وحين رأت جبرًا من مسافة ليست ببعيدةٍ، دخلت خيمتها ولبست عباءتها وخرجت، ثم وقفت أمام التنور تنظر

للرجل القادم، الرجل المترنح الهائم الذي جاء به القدر باحثًا عنها. اقترب جبرٌ كثيرًا من زكية، وقف أمامها منهكًا. كانت زكية في منتصف عقدها الرابع، رشيقة ومياسة القدِّ، لم تفارقها علاماتُ المرأة الحسناء، الهيئة المضيئة لمخلوقةٍ لها نظرةٌ تجعل القلبَ يرتعد، كانت ثَمَّة لمعةٌ غريبة تبرق من عينيها، ولها شفتان حمراوان وحاجبان كثيفان. أراد جبر أن يسلم عليها لكنَّه تلعثم، حرك شفتيه، إذ أراد أن يقول: أنا جبر، أنا ابنك. لكنَّ لم يقوَ على ذلك، أشار لها بيده أن تعطيه بعض الماء. نظرت زكية لوجه ذلك الشاب المنهك، نظرت في عينيه، شحب لونها، ودخلت الخيمة لتحضرَ الماء.

- هلا بيك يا خوية، قالت زكية حين ناولت طاسةَ ماءٍ لجبر. لاحت ابتسامةٌ كسولةٌ على محيَّا جبر حين سمع كلمة (يا خوية).

شرب جبرٌ الماء وانتبه لزكية، كانت تمعن في النظر لعينيه كأنها تبحث فيهما عن هوية هذا القادم من العدم. لا يعرف ماذا يقول وكيف يبدأ، كانت كلمات جبر تتبعثر في حلقه وتتخبط بين شفتيه، جمع شتاتَ روحه وتمتم بصوتٍ مرتجف.

- أني...، أنِّي جبر.

- هلا بيك يا خوية، وين وجهك بهذا الكيض؟ ردت زكية ولم تكفَّ عن النظر بعينيّ جبر.

- أنى، جبر أبنج

لطمت زكية خدها وشهقت كأنَّها رأت توًّا شبحًا أو شيطانا.

- سودَ الله وجهك، شجابك ليَّة. ثم أردفت بعد أن اقتربت تنظر بوجه جبر:

- يمَّة، ولك أنت تشبه ذاك الجلب، فرحان.

انكسر شيءٌ ما بقلب جبر ثم أطرق برأسه نحو الأرض.

- أني، إجيت أشوفج يمَّة شعلية بفرحان؟ ليش عفتيني يمة.

- الله لا ينطي أبوك الرحمة هو وأمه، شفت الضيم ويَّاهم. عشت ويَّاهم أيام سودة. ثم أخذت بكفٍّ من العجين وأخذت تخبز.

- أني أريدج يمَّة، أنِّي راح أزوج وأفكِّر بيج ليل ونهار، إجيت من السلمان امشي حتى أشوفج.

- أبوك الِّي ما يخاف من الله عذبني وضربني، أنِّي ما إلي ذنب بكتل نايف المهبول.

- يمة، إجيت أموت من العطش والجوع، مشيت ليل ونهار حتى أشوفج.

- جدتك أم فرحان مرة ما تخاف من الله تسبّ بيَّة وتشتم وراوتني نجوم الظهر.

- يمة هسة ما أدري أكدر أرجع لو أموت بالدرب، ليش عفتيني، أني شنهو الي سويته.

- من اجة خبر أبوك ميت بالحرب، حمدت الله وشكرته الي خلصني من هذا الثور الظالم.

كان جبر يقف أمام زكية وعيناه تدمع، رمى بطاسة الماء على الأرض واستدار يخطو بيأسٍ.

قالت زكية خلفه: كلهم ما يخافون من الله ربي لا ينطيهم الرحمة.

لم يلتفت جبر وأخذ ينحب.

لم تقل زكية كلمة، بعدها أخذت تخبز بعصبيةٍ ولم تسأل جبر كيف وأين سوف يذهب.

سار جبر، بكى كثيرًا حتى جفت عيناه، سار هكذا بلا وجهة، يخطو فقط خطوة إثر خطوة، سار طوال الليل وعاتب السماء والنجوم، جفَّ حلقه ولم يعرف أي اتجاه هو الصحيح، دار في مكانه وترنح كثيرًا، لم يعد يعي ما حوله، أخذ يتمتم باسم زكية ويسير على غير هدىً حتى

سقط على وجهه وغاب عن الوعي. ساعاتٌ وجبر يغطُّ في عالمٍ مظلمٍ، لم يرَ فيه شيئًا سوى صراخ امرأةٍ تلد وتشتم. أحسَّ جبر بجسده يهتز ولم يقوَ على الحراك، أراد أن يقول شيئًا لكنَّه عجز عن تحريك شفتيه، حاول رفع أجفانه ليرى ما حوله، كانت عيناه عاجزةً أيضًا، أصرَّ جبر أن يتحرك، حاول دون جدوى، لكن ثَمَّ يدٌ مسحت على رأسه، فأحس بها، لقد كانت يدًا حنونة أعطته شيئًا من القوة. فتح عينيه فرأى وجه سعدة وعيناها تدمعان.

آخر يومٍ

سقط عُقبُ السيجارة من أُصابع هادي مدرس اللغة العربية المتقاعد حين كان يعدُّ الأيام، وتبيَّن أنَّ هذا الصباح بداية آخر يومٍ في حياته، ارتعشت ذراعاه وأخذ يتمايل في خطواته. لقد أطلعه الطبيب على حالته قبل ستة أشهرٍ وقال له بدون مجاملةٍ ولا تلميعٍ للكلمات: السرطان منتشرٌ في جسدك يا أستاذ هادي، وهذا لأمرٌ مؤسفٌ طبعاً، لكن، هذا ما يريده الله لا ما نريده نحن، ولم يتبقَّ لك أكثر من ستة أشهر. ثم أطرق الطبيب برأسه نحو الأسفل وأخذ ينظم بعض الأوراق على مكتبه. والحقيقة أنَّ الأستاذ هادي مدرس اللغة العربية المتقاعد لم يعِ جيداً الوقت القليل المتبقي له، ولم ينتبه سوى اليوم في هذا الصباح التعس، فإنَّ المئة والثمانين يومًا قد تلاشت وذهبت بسرعةٍ بدون أن يدرك ساعاتها ولا حتى دقائقها. اليوم آخر يومٍ في حياة الأستاذ هادي، وماذا يفعل رجلٌ وحيد بتلك السويعات التي تنهال مثل الرمل.

ثمانٌ وخمسون عامًا ذهبت أدراج الرياح وأصبح اليوم لا يعرف ماذا يفعل؛ في مثل هكذا يومٍ قاطعٍ كالسيف، يومٍ لا يشبه كلَّ الأيام الماضية. انهارَ الأستاذ هادي على سريره وأخذ ينحب مثل طفلٍ جائعٍ، ثم بعد قليل استدرك أنّه لا وقت للبكاء والعويل في حرب الانتظار، حرب تكون فيها الدقيقة مثل الطلقة إن خرجت من ظرفها فلا يستطيع أحد إيقافها.

بدى وجه المدرس المتقاعد أكثر شحوبًا من جثةٍ، وتورمت عيناه وبدتا جاحظتين حين نظر لنفسه في المرآة، وقد أحس بتشنج مفاجئ في معدته، ثم أخذ يدمدم مع نفسه: هيا تحرك، هذا اليوم هو الأخير، يجب ألَّا تضيع دقيقة واحدة.

لكن أستاذ هادي لم يتحرك، ظل واقفاَ مثل شجرة، واقفًا ونظره يلاحق اللاشيء. وعندما أحسَّ بأنَّه أهدر الكثير من الدقائق، تحرك أخيراً وارتدى ملابسه، ودخل غرفة النوم قاصداً خزانة الملابس، فأخذ كلَّ النقود الموجودة والتي وفَّرها من بقايا راتبه التقاعدي.

الساعة الثامنة إلَّا ربع صباحاً، خرج الأستاذ هادي ولم يؤكد على قفل الباب مثل كلِّ يوم، فلم يعد يبالي أو يقلق، كلُّ تلك الكراكيب القديمة سوف تؤول للورثة من

بعده لأبناء أخيه، فلا حاجة لإهدار المزيد من الوقت في التأكد من كلِّ شيءٍ، اليوم يجب أن يرى الشمس ويسمع أصوات الناس للمرة الأخيرة. بعد خطواتٍ من السير تذكَّر الأستاذ هادي أنَّه نسي سُبحته، لم يتوقف لكنَّه امتعض قليلًا، ماذا يفعل بالمسبحة؟ ألا يكفي انخراطُ الدقائق بلا فائدة، ما أشبه يومه بالمسبحة، ينقضي على عجلٍ خرزةً خرزة. أخذ الأستاذ هادي يسير ويفكر ماذا يفعل، هل يقضي هذا اليوم معتكفاً في المسجد يصلي ويقرأ القرآن، أم يذهب ويبحث في الأسواق والشوارع ويجلس في المقاهي؟ أو يزور الأصدقاء والمعارف ويراهم لآخر مرة. تحسَّر كثيرًا وتذكر زوجته التي تنتظره الآن في عالم الأموات، رفع رأسه نحو السماء وأخذ يعاتب: لمَ لم ترزقني بالأولاد يا ربِّ، ماذا أفعل الأن؟ هل أموت على الرصيف مثل كلبٍ شريد؟ سار بلا وجهٍ حتى توقف فوق جسر المشاة الرابط بين ضفتَي المدينة ليلقي نظرةً على من حوله. كلُّ شيءٍ هادئٍ اليوم، حتى الناس تسير بصمتٍ، مدَّ عنقه ونظر باتجاه النهر، نظرةً مودعةً تشي بحسرةٍ كبيرة، هزَّ رأسه وتنهد ثم استأنف طريقه، سار بخطواتٍ سريعةٍ وحازمةٍ لعلها تسبق الوقت اللعين، الوقت الذي أصبح مثل سفينةٍ تشقُّ عبابَ البحر

مسرعةً. دخل في أول شارع أمامه، ثم الآخر على يمينه، دخل إلى دكانٍ صغيرٍ وابتاعَ علبةَ سجائر، لا بل اثنتين، اليوم هو بحاجةٍ للتدخين أكثر من كلِّ يومٍ. عند أول منعطفٍ أمامه رأى الأستاذ هادي قطعةً كبيرةً على مبنىً مطليٍّ باللون الأبيض والأزرق السماوي، عليه رسومات لشخصياتٍ كارتونية، وخلف سياجِ المبنى حديقةٌ مزدانة بالورود والأشجار المقلمة على أشكالٍ هندسيةٍ جميلة. حاول قراءة الكلمات على القطعة المعلقة عاليًا، لكنّه تذكر نظارته، فلقد نسيها أيضًا بجانب السرير، ضيَّق جفنيه وركز يقرأ الكلمات (دار، الزهراء لل.... اقترب أكثر وضيَّق عينيه أكثر حتى كاد أن يرتطم بالجدار (دار الزهراء للإيواء والتأهيل المجتمعي).

كانت البناية البيضاء والزرقاء يحيطها سياجٌ نصفُ مبنيٍّ من الطابوق والنصف الآخر، أي النصف العلوي من قضبانٍ حديديةٍ تشبه أسوار السجون. كانت جلبة الأطفال وصيحاتهم تملأ المكان، أخذ الأستاذ هادي مدرس اللغة العربية المتقاعد ينظر من خلف السياج مشدوهًا بتحركات الصبية ولعبهم، أطفال بأعمارٍ مختلفة، أكبرهم لم يتجاوز الثانية عشر. لقد استغرق أستاذ هادي بالنظر للأطفال دقائقَ كثيرة حتى نسي نفسه، كانت عيناه الدامعة

ترتشف من ينبوع الأطفال العذب، وتسرح معهم بين اللَّعبِ والأراجيح، أراد أن يعاتب ربَّه على حرمانه، وكيف تبدو الأطفال هنا بلا قيمةٍ بعد رميهم من ذويهم أو فقدانهم لأهاليهم، لكن في هذا اليوم الشحيح يكون العتابُ ضربًا من التبذير ومجهودًا ملقىً بلا فائدة.

انتبه أحد الأطفال للكهل الواقف خلف السياج، وقد شدته نظراتُ الرجل وتمسكه بقضبان السياج، ركَّز قليلًا وأخذ يقترب، وقد كان الطفل يعتقد أنَّ للرجل حاجةً أو جاء باحثًا عن أحد الأطفال، أخذ يتقدم نحو السياج متظاهراً بأنَّه يلعب. وكانت ثَمَّة امرأة تتوسطُ الحديقة تراقب الأطفالَ عن كثب، امرأة بدينة ترتدي ثوبًا أزرقَ وغطاءَ رأسٍ أسودَ. أخذ الطفل يقترب من السياج أكثر، وهو يحمل اسم رعد وفي الحادية عشرة من عمره، قضى نصفها في هذه الدار والنصف الآخر في الشوارع، ولقد هرب من الدار أكثر من مرَّة.

وجدوه حين كان صغيراً ملفوفًا بخرقةٍ ومتروكًا أمام باب بناية مستوصفٍ في أحد أحياء المدينة. كان رعد طفلًا كثير الحركة ومشاغبًا، ويعرف كلَّ خفايا وأماكن السوق، فلقد عاش وترعرع سنوات بين الباعة والبقالين، كان تواجده خارج أسوار الدار متقطعًا، يهرب سنةً أو

أكثر ثم يتم العثور عليه. أوقات قصيرة، لكنَّها تكفي لجعله يعرف الكثير عن العالم الخارجي.

ابتسم الأستاذ هادي حين رأى الطفل قريبًا من السياج، وقد شدته حركات الطفل الذي كان يتشقلَب على الأرض العشبية برشاقة وخفة عجيبة، وحين رأى الطفل نظرات الكهل وابتسامته أخذ يقف رأسًا على عقب ويحاول السير على يديه، رآه الأستاذ هادي وخاف أن يتعرض لمكروهٍ، فصاح بصوتٍ خافتٍ خشية أن تسمعه المرأة البدينة:

- انتبه، لرأسك يا ولدي.

وقف الطفل رعد عند السياج، وكان يلهث، فنفض العشب العالق على ملابسه ثم رفع رأسه للأستاذ هادي وقال أيضًا بصوتٍ خافتٍ، إذ كان يخشى تلك المرأة ذات الرداء الأزرق:

- ماذا تريد يا عمُّ، هل لك طفلٌ هنا أحضره لك.

- لا، لا، يا ولدي، كنت ذاهبًا بالصدفة ورأيتكم تلعبون، أحبُّ متابعة الأطفال حين يلعبون.

- ...،...

- إيَّاك أن تلعب هكذا يا ولدي، احذرْ أن تسقط على رأسك، أو تؤذي وجهك.

- نعم...،

- أنا يا ابني...

- أنا لا أحبُّ هذا المكان يا عم، لا أحبَّ فطورَ الجبن، أريد أن أذهب هناك للسوق حيث السندويش الطيب الهامبرغر والكباب.

- لا بأس يا ولدي، أنا أحضر لك السندويش.

- خذني معك يا عم، لا أحبُّ هذا المكان.

- لا أستطيع، هذا موكدٌ أنَّه غير مقبول، لا يسمحون لي بذلك، وداعاً يا ولدي وخذ حذرَك عند اللعب.

التف الأستاذُ هادي وعاد من حيث أتى، فقد زاده كلامُ الطفل بؤساً فوق بؤسه. أخذ يفكر في كلام الطفل، لِمَ لَمْ يكن معه الآن؟ ماذا سوف يفعلون لو بقي معه يومًا واحدًا آخر ساعاتِ حياته، لكن كيف وماذا يقول لمدير الدار وتلك المرأة الثقيلة؟ أخذ يسير بثقلٍ وهو مطأطئَ الرأس نحو الأرض، دخل في الزقاق الذي أتى منه ومن ثم استدار في الشارع التالي حتى أحسَّ أنَّ هناك خطواتٍ وئيدةً تتبعه، التفت الأستاذ هادي مدرس اللغة العربية المتقاعد ليجد رعدًا يلهث خلفه.

وقف الأستاذ هادي مشدوهًا برؤية رعد يقف إلى جانبه مثل أرنب، كان الصبيُّ يبتسم وينظر للرجل بمكرٍ.

- ماذا تفعل يا ولدي؟ كيف خرجت من الدار وأين تريد؟

- لقد هربت يا عمّ، هيَّا لنذهب، سوف تلحق بنا أمُّ حامد.

- من هي أمُّ حامد؟

- أمُّ حامد المراقبة يا عم، المراقبة السمينة.

لم ينطق أستاذ هادي بكلمة، وتاهت نظراته ما بين رعد ورأس الشارع وكأنَّه ينتظر قدوم المرأة ثم أخذ يفكر. كيف أصطحب هذا الطفل معي؟ ماذا لو أخبر موظفو الدار الشرطة عنِّي؟ إنَّها مسؤوليةٌ كبيرةٌ، ثم قال في سرِّه وكأنه يناقش شخصًا آخر. إنَّ ثمانيةً وخمسين عامًا وأنت خائفٌ من المسؤولية، ألا يكفي؟ لا تكن جبانًا، ودعِ الأمورَ تسير هكذا، لم يتبقَّ لك سوى سويعاتٍ، خذِ الطفلَ المسكين وانطلق.

نظر الأستاذ هادي بوجهِ رعدٍ وابتسم ثم مدَّ يده ليلتقط كفَّه الصغيرة.

- علينا أن نجدَ مطعمَ كبابٍ جيّدٍ هنا، أليس كذلك؟

هزَّ رعد رأسه بالموافقة.

ثم أشار الأستاذ هادي لتكسي وركبا معًا، وحين سأل سائق التكسي الأستاذ هادي عن وجهتما، أجاب لأقرب مطعم كباب.

دخلا المطعم ووجدا مائدةً صغيرةً في أحد الأركان، جلس كلٌّ منهما في مواجهة الآخر. جاء عامل المطعم مسرعًا ليعرف ما يطلبان، سأل الأستاذ هادي رعدًا ماذا يحب أن يأكل، أجاب رعدٌ وكان مسرورًا للغاية: أريد كبابًا يا أبي.

لم يجبِ الأستاذ هادي واكتفى بإيماءةٍ من رأسه لعامل المطعم، لقد تكورت في حلقه عبرةٌ ساخنةٌ حين سمع كلمة أبي، أطبقت على أوتاره الصوتية، كلمة أبي كان لها صدىً عنيفٌ في أعماقه، ثم أخذا يتحدثان أثناء الأكل، قال رعد: أريد البقاء معك يا أبي. لم يجِبِ الأستاذ هادي، استغرق في النظر لوجه رعد الأسمر وشعره الطويل المنساب على جبينه، وأخذ يُغرِقُ في ذلك الوجه البريء، لقد أخذ الطفلُ من عبد الهادي كلَّ انتباهه وأنساه يومه المشؤوم والدقائق المتناثرة من ساعاته الأخيرة في الحياة، تمنَّى أن يكون قد التقى برعدٍ قبل هذا اليوم. مدَّ الطفل يده داخل جيب سترته وأخرج مقلاعًا، وبدأ يقلب أمام الأستاذ هادي. قال: انظر يا أبي.

وأخذ يجرُّ حبال المقلاع المطاطية، ثم أردف: هذا يستطيع إسقاطَ أي عصفورٍ أو حمامة يا أبي. ثم أخفاه في كمِّه وعاود الأكل. حين انتهيا من الأكل خرجا للشارع.

لماذا قال لي يا أبي؟ لم جاءت تلك الكلمة متأخرة هكذا؟ لماذا في آخر يومٍ في حياتي؟ أخذت الهواجس من الأستاذ هادي تحوم حوله مثل حمامة، كان لوقعِ كلماتِ رعدٍ شيءٌ غريبٌ في روح الكهل اليائس، وأخذت تلك الكلمة تدور في رأسه وتهيم في روحه.

- أين نذهب الآن يا أبي؟ كرَّرها رعد حتى دمعت عين الأستاذ هادي ولم يتمالك نفسه، هبط على ركبتيه أمام رعد وأخذ ينحبُ ومع نشيجه، وأخذ يحكي للطفل عن هذا اليوم.

- أنا، أنا يا ولدي مريضٌ ومقبلٌ على الموت، اليوم هو اليوم الأخير في حياتي.

- هل هناك شيء يؤلمك يا أبي؟ هل ضربك أحد؟

- لا يا ولدي، إنّي مريضٌ، والطبيب قال لي أنْ لا أملَ في شفائي.

- لقد كان محمدٌ مريضًا أيضًا لكن الأستاذ رأمي قال له: لا عليك، سوف تشفى وشفي، تعرف محمد؟ الطفل

الأشقر في الدار، لقد كان مريضًا والآن هو بخيرٍ ويلعب معنا.

- لا بأس يا ولدي، هيَّا لنذهب، يجب ألَّا يضيع الكثير من الوقت. قل لي أين تريد أن نذهب؟

- لا أعرف يا أبي، قل أنت.

أخذ أستاذ هادي يبكي ويبتسم في آنٍ واحد، يبتسم ابتسامةً مبللةً بالدموع. ربَتَ على رأس رعد ونهض وقال: لنذهب، أنا أعرف حديقةً ترفيهيةً فيها الكثيرُ من الألعاب. حين وصلا للحديقة، أشار رعد نحو دولاب الهواء: هذا يا أبي، أريد الصعود، هيَّا نركب في الدولاب. لم يفعلها الأستاذ هادي طوال حياته، كان يخاف الأماكن المرتفعة. رفع رأسه للأعلى ونظر لتلك العرباتِ المعلقة في الهواء، وصراخ الركَّاب وجلبتهم، وقال: لا، لا يا رعد أنا لا أستطيع، لنذهب، هناك ألعابٌ كثيرة. لم يتحرك رعدٌ وأخذ يجرُّ الأستاذ هادي من يده، وحين عجزَ عن إقناعه أخذ يقبِّلُ كفَّه ويرجوه. لم يستطع أستاذ هادي مقاومة طلبِ الطفل، انحنى وقبَّل رعد من رأسه وقال: لنفعلها إذن. حين بدأ الدولاب في الدوران أخذت عربةُ الأستاذ هادي ترتفع ورعدُ يصفِّقُ، وحين وصلت القمةَ ارتمى رعدٌ على صدر الأستاذ هادي وبدأ يصرخ: نحن

نطير يا أبي، نطير مثل حمامة. وأستاذ هادي مدرسُ اللغة العربية المتقاعد يبتسمُ ويضمُّ رعدًا إلى صدره، وظلَّ يحلِّقُ حتى حلقت روحُه في سماء الحديقة وانتهى يومه الموعود على عجل.

سيِّدُ بافر العطَّار

حين جاء صبيُّ السراج وأخبر السيد صالح العطار بأنَّ الحبُّوبة أم سعد تقول: الله رزقك بولد. كان الخبر بالنسبة للسيد صالح الأقطع الذي فقد أحد ذراعيه في الحرب، مثل ماءٍ باردٍ في عمق الصحراء وفي قيضٍ حارق. كان ينتظر هذا الخبرَ منذ سبع سنين، والآن جاء وليُّ العهد الذي طال انتظاره، أغلق دكانَ العطارة الصغير وذهب يهرول في أزقة الشرقي الضيقة. كانت زوجة السيد صالح أيضًا علوية وجاءت من بيت سادة من بني هاشم، ولم يرَ وجهها أي رجلٍ غريبٍ منذ ولادتها حتى تزوجت السيد صالح، وإذا ما أرادت الخروج فإنها تغطي وجهها بقماش أسودَ ولا تتكلم مع أحد، فقط إذا أرادت شيئًا ما أو أرادت أن تبتاع حاجةً تنطق بكلمةٍ أو كلمتين فقط. اليوم قد ولدت العلوية وأنجبت سيدًا صغيرًا ينتظره والده مثل الغيث.

في اليوم الثاني جاء السيدُ صالح لدكانه وقد انفرجت أساريره وأخذ يبتسم للجميع ويوزع الحلوى على أصحاب الدكاكين والمارة. سأله بائع التمر عن اسم السيد الصغير، ردَّ عليه بعد أن صلَّ على النبيِّ: باقر، السيِّد باقر.

بعد مرور سنةٍ تبيَّن أنَّ السيد باقر ولدٌ كفيفٌ لا يرى. دار السيد صالح في أنحاء البلاد، وأخذه لعشراتِ الأطباء دون أي نتيجةٍ، فالكلُّ قال أنْ لا فائدةَ ولا أمل.

ذهبت لذَّةُ الأبوَّة وراح الشغفُ من قلب السيد صالح، وتملكه اليأسُ، ولم يعد ينظر لوجه طفله ولا يعيره أيَّ اهتمامٍ. أخذ يندب حظه وينظر للعلويَّةِ بشزرٍ كأنَّها المسبب الرئيسيُّ في ذلك. أخذ يكبُرُ السيد باقر في كنف العلوية، وقد صبَّتْ عليه اهتمامَها وحبَّها، وقد أخذ كلَّ وقتها، عكس ما يظهر من السيد صالح تجاه ابنه من جفاءٍ، حتى تبيَّن أنَّ قلبه قد تحجَّر وأخذ يكره طفله الصغير. حين أصبح السيد باقر في سنِّ السادسة، أخذت العلوية تعلِّمه كيف يستطيع أن يتعرف على الأشياء بواسطة اللمس والشم والسمع، وقد قالت له في أحد الليال: ولدي باقر، عليك أن تحفظ في قلبك جميع الروائح، حتى تكون قادرًا على العمل في العطارة. وفي

سنته الحادية عشرة طلبت من السيد صالح أخذه للدكان، رفض مرارًا، وأصرَّ، لكن إصرار العلوية كان أقوى، وسمح له بالذهاب معه. كان السيد باقر يمسك حزامَ أبيه الجلدي ويسير خلفه، في أول يومٍ سقط على وجهه عشرين مرةً حتى أُدميت جبهته. في الليل أخذ يبكي ويرجو من أمِّه ألَّا تطلب منه الذهاب مع أبيه، لكن العلوية قالت له: لا عليك يا ولدي، هذا سهلٌ جدًّا. وفي اليوم التالي أخذت السيد باقر وخرجت به تدرِّبُه على معرفة الطريق، خذْ يا ولدي ولتنتبه، عليك بحساب خطواتك، من باب البيت حتى الرصيف ثلاث عشرة خطوةً، عدَّ الآن معي، واحد، اثنان، ثلاث...، ثم تستدير نحو اليسار، أربع خطواتٍ حتى عمود الكهرباء، ثم أربع خطواتٍ أخرى وتنزل الرصيف، ثم ثلاثين وتدخل شارع الصفارين، وعشرين تعبر السوق المسقوف، وخمس عشرة حتى عمود الكهرباء الثاني، ثم خمس خطواتٍ لدكان أبيك. وأخذت تكرر هذا الأمر لأسبوعين، وفي اليوم الخامس عشر طلبت من السيد باقر أن يذهب لوحده، تردَّدَ، واصفرَّ لونُه، أخذ يرجو العلوية لكنَّها أصرَّت وقادته لباب المنزل، دفعته للخارج وأغلقت البابَ. كانت تحاول حبسَ دموعها خلف الخرقة

السوداء، ولم تنطق بكلمةٍ خلفه، منعتها العبرة من البوح، وأخذت ترتجفُ خوفًا عليه، لم تبتعد عن الباب وكانت تنصتُ لتعرف ماذا يفعل.

تحرك السيد باقر، خمس خطواتٍ وتعثر، وحين نهض لم يستطيع أن يعرف اتجاه الرصيف، أخذ يبكي، سمعته العلوية، أراد قلبها أن يقفز من خلف الباب، لكنَّها أمسكت بنفسها وأرادت أن يتشجع ويساعد نفسه. سكت السيدُ باقر ومسحَ دموعه وتذكر كلامَ أمِّه حين أكَّدت له أنَّه أصبح رجلًا وصار عمره أحد عشر سنة.

شمَّ رائحة الأرض، وكذلك رائحةً أخرى، رائحةً نزِقَة تأتي من فوهة المجاري، ثم ضحكةً من بعيدٍ لطفلٍ يلعب، سمع كذلك رجلًا يسعل، واحتكاكَ شيءٍ على الأرض.

أخذ يزحف حتى لامسَ بابَ بيتهم ونهض مرةً أخرى، وأخذ يخطو ويعدُّ خطواته: واحد، اثنان،...، حتى عدَّ ثلاث عشرة ورفع قدمه حتى لامست الرصيفَ، فرح كثيرًا وتشجَّع، ثم واحد، اثنان، ثلاث، أربع، عمود الكهرباء الأول، احتضن العمودَ كأنَّه صديقٌ حميمٌ، وشمَّ رائحة الصدأ، ابتسم وانطلق يعدُّ الخطوات، نزل عن الرصيف، وسار بخطىً مترنحه، حتى بدأ يسمع جلبةَ

مطارق الصفَّارين وأنين المعادن بين أكفّهم، هناك صوتُ خرخشة، ثم تنهيدة رجلٍ متعبٍ، صوتُ امرأةٍ تطلب من الصفار إصلاحَ إبريق الشاي، داهمته رائحة عطور، ثم رائحة نحاسٍ ساخنٍ يشبه رائحة التراب المداف بالماء، ثم سمع لغطًا كثيرًا وأحاديثَ غير مفهومةٍ ومتقطعة.

دخل السوق المسقوف، ثم سمع صراخَ بائع السمك، وشمَّ رائحة الدُّهن الحرِّ، وهناك امرأةٌ تطلب من ابنها الإبطاء، روائح بخورٍ تأتي من مزار السيد إبراهيم، رجلٌ يطلب من صبيّ المقهى شايًا. أخذ يعدُّ من الواحد حتى خمسة عشرة، لامست أُصابعه عمودَ الكهرباء الثاني، ثم خمسة حتى وقف أمام دكان أبيه، عرف ذلك من رائحة الكركم وأوراق الغار والنفحة الملونة بعطور البهارات. حين رأى السيد ابنَه مدَّ عنقه ينظر خلفه، كان يعتقد أنَّ العلوية تتبعه، وحين لم يرَ أحدًا، سأل السيد باقر: من جاء بك؟ ردَّ السيد باقر وابتسامةُ خجلةٌ ارتسمت على محيَّاه: جئت وحدي يا أبي. دمعتْ عينا السيِّد صاحب، وعانق ابنَه بحرارةٍ.

شجرة رضا

قبل أيامٍ، ذهبتُ لمقبرة وادي السَّلام، كان الوقت قبيل الغروب. ذهبت لأقرأ سورةَ الفاتحة على روح أخي المتوفِّي، ذرفتُ بعضَ الدموع وأخذتُ أسكب الماء على القبر، ثم مسحت الشاهدَ والصورةَ المعلقة بجانب القبر. كان الجوُّ هادئًا يبعث على الطمأنينة، وحين حلَّ الليل انبثق قمرٌ شاحبٌ أضاء المكان بشعاعٍ فضيٍّ هزيل. كان المكان محتشدًا بالقبور بشكلٍ يجعل المسير غايةً في الصعوبة، وفي بعض الأماكن كان لابدَّ من أن يتسلق المرءُ بعض القبور للنفاذ إلى جهةٍ أخرى. سلَّمتُ على أخي وأشعلتُ سيجارةً، ثم بدأت أسير بين القبور للخروج، رأيت صورًا ومجسماتٍ لعشرات الموتى ومن كافة الأعمار والأجناس. منظرٌ مهيبٌ، آلاف وآلاف البشر تحتشدُ في هذا المكان، أودعهم أهلهم تحت الرمل الناعم وذهبوا ليكملوا حياتَهم. أفواجٌ من البشر مغيَّبون لا نعرف عنهم ولا نعلم.

أخذتُ أسير لكن ببطءٍ، وبدأتْ عكازي تعرقل مسيري أكثر من أن تساعده، وحين وصلتُ إلى منطقةٍ فيها القبور أكثر علوًّا وارتفاعًا من سابقاتها وأكثر تلاصقًا، تسلقتُ أحد القبور ثم قفزتُ إلى الجانب الآخر، وإذ بي أسقط في قبرٍ فارغٍ بلا ميت، اصطدمتُ بحافَّة القبر في فكِّي السفلي وتمزَّق كاحلُ قدمي السليمة. خفتُ كثيرًا وداهمني قلقٌ غامضٌ اختلط مع آلام فكِّي وقدمي وصار هاجسًا مرعبًا. كان القبر عميقًا وضيِّقًا، لقد أمعن الحفار في النزول، وتجاوز المترين أو أكثر. حاولت أن أتمسَّك بحافة القبر لكن لم أطَلْه، كنت قصيرًا ولا تصل يداي للحافَّة. تشتت تفكيري وخفتُ أكثر حين عجزتْ قدمي عن رفع جسدي. حاولت الجلوسَ لأستريح وأفكِّر جيدًا، مددتُ قدمي الممزقة داخل اللَّحد وأسندتُ ظهري على الجدار الترابيّ. أخذت أفكِّر وأفكِّر لعلي أجد سبيلًا لخروجي، أشعلت سيجارةً لعلَّها تبدِّدُ بعضَ القلق المطبِقِ على روحي، أخذتُ نفسًا عميقًا ودعوت الله أن يساعدني، ثم بدأ شريط الذكريات يجول في رأسي. فكِّي يؤلمني بشدَّةٍ وقدمي أمست مشلولةً كرفيقتها، كنت عاجزًا لا محال وهالكًا أيضًا.

بـدأت أهـدِّئ مـن روعـي وقلـت فـي نفسـي: لا بـأس سوف يأتي الصباح ويبدأ الزوار بالتوافد، وسوف أناديهم وأطلب منهم إخراجي من هذا القبر اللّعين. وبعد ساعةٍ مـن الصـمت والتـدخين والألـم المبـرِّح سـمعت أصـواتًا قريبـةً، جاهـدت لكـي أقـفَ وأصـيخ السـمع لأتبـيَّن الأصوات لكن عجزت عن رفعِ جسدي، بدأ الصوتُ يقترب، صحت، وطلبتُ النجدةَ. كان الصوت لصبيةٍ يجمعون عبوات الماء الفارغة، اقتربوا من قبري كثيرًا، صحتُ عليهم مرةً أخرى ورجوتهم وقلتُ لهم إنّي قد سقطتُ في القبر ولا أستطيع الخروجَ، صحتُ: أنا زائرٌ من أهل السماوة أنقذوني. توقفوا في مكانهم وأخذوا يدمدمون بصوتٍ خافتٍ، قال أحدهم: الصوت من القبر الفارغ. أيَّده آخر، تحرَّك أحدهم، نهره أحدهم وطلب منه عدمَ الاقتراب من القبر ولا النظرِ فيه، صحتُ عليهم ورجوتهم مرةً أخرى، حذَّرهم صاحب الصوت الخشن وطلب منهم التراجعَ فورًا. رجوتهم حتى بكيتُ من شدة الألم، سمعت أحدهم وكان له صوتٌ يشبه الغرغرة: هذا شيطان، خلِّي نشرد. أيده ذو الصوت الخشن، لكن الثالث دعاهم بخبثٍ أن يردموا القبر أو يحرقوه، فوافقوا جميعًا. زاد رعبي وبدأت أصرخ عليهم أن يخرجوني ويتركوا هذا

الجنون: أنا أخوكم، لقد سقطتُ فقط، أنا لست شيطانًا يا...

اقترب صاحب الصوت الجهوري وقذفَ حجرًا بحجم كرة قدمٍ في القبر، سقط على كتفي حتى سمعت تكسُّرَ عظامي، لم أستطع الصراخَ، قلت وأنا أتلوَّى من الألم: لعنكم الله ماذا فعلتم؟! ثم ابتعدتْ أصواتهم وقد كنت أسمعها تأتي متفرقةً من عدة اتجاهاتٍ.

عاد ضجيجُ الفتية ودمدمتهم، طلب الخبيثُ من أحدهم ولَّاعةً ومن ثمَّ دلق صاحبُ الصوت الخشن على رأسي كومةً من الأوراق وأعواد الشجر والعشب اليابس. أخذتني رجفةٌ وبدأتُ أحاول مرعوبًا أن أُزيح الورق والعشب عن جسدي، همْمْتُ بالوقوف، وأخذت أغرز أظافري بالجدار الترابي جاهدًا لعلِّي أرفع جسمي وأقف. كان التراب ينهال على رأسي حتى عاجلني أحدهم بكومةٍ أخرى من النفايات وعلب الماء الفارغة، ثم سمعتُ صوتَ الولَّاعة فأخذتني نوبةٌ من الصراخ، قال الخبيث: أشعل القبرَ بسرعة. أشعل صاحب الصوت الذي يشبه البقبقةَ كومةً من الورق والعشب وقذفها على رأسي، كان كلُّ شيءٍ جافًّا، الورق والعشب تلقَّفا النار مثل وقود السيارة، اشتعلَ رأسي أولًا، وأخذتُ أضرب بكفي وأبعد

النارَ عن جسدي، اشتعلت دشداشتي، حاولت الدورانَ في القبر، اعتنقتُ الجدرانَ لعلَّ الترابَ يساعدني، بدأ رأسي يؤلمني بشدَّةٍ وأخذ جلدي يحترق، شممْتُ رائحة شواءٍ، وبدأ جسدي يسخن والجو يبرد بشدة، جنَّ جنوني وضربتُ الجدران وكلَّ شيءٍ بيدي وصرخت، نغزتني النار في ظهري واحترقتْ أذني وأنفي ثم بدأت غمامةٌ من الضباب ولم أعد بعدها أرى شيئًا أثناء تخبُّطي، ثم توقفت عن الحركة وراح الألم شيئًا فشيئًا، ولم أعد أسمع ولا أشمُّ شيئًا. أظلم المكان فجأة، كان الهواء ثقيلًا وكنتُ أتنفَّس بصعوبةٍ وأخذ قلبي ينبض بسرعةٍ رهيبة حتى كاد أن يقفز من صدري ثم أبطأ، وأحسست بأنني أختنق حتى توقف.

ثم شيئًا فشيئًا بدأت أرى من حولي وشممتُ رائحةَ لحمٍ محترقٍ وروائح أخرى لا تُطاق، ولم أعد أحسُّ بألم فكّي وقدمي فداهمني إحساسٌ غريب، إحساس بأنَّني قد وُلدت من جديد. كنت خفيفًا وحين حاولت الوقوفَ لم أجد أي صعوبةٍ في ذلك، نظرت نحو الأعلى، ورأيت السماء مرصعةً بالنجوم، نجوم متوهجة وواضحة جدًّا. مددت يدي نحو حافة القبر، كانت بعيدةً أيضًا، وقلتُ لنفسي: بما أنِّي استطعت أن أقف، لمَ لا أحاول أن أقفز

بجذعي نحو الأعلى لعلي أمسك بحافة القبر؟ وفعلًا قفزتُ وكنت رشيقًا فخرجت من القبر بخفةٍ عجيبة. وقفت فوق القبر اللَّعين وبدأت أنفض الغبار والقذارة عن ملابسي، ثم تذكرت الفتيةَ الملاعين وما فعلوه بي، فقررتُ اللَّحاق بهم وتلقينهم درسًا على ما اقترفوه بحقِّي، تحركت خطوةً وتذكرت عكَّازي، استدرت ونظرت في القبر، لكن ما رأيته كان مرعبًا، وجعلني أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي. لقد رأيتني محترقًا داخل القبر، كانت جثتي متكوِّمةً مثل جثةِ حيوانٍ نافق، كانت مشوهةً بسبب النار وعلب الماء الذائبة، خفتُ وتراجعتُ للخلف وبدأت أفكِّر كيف حصل هذا، إذن من أنا وكيف خرجت؟ ثم دفعت كلَّ تلك الأفكار عن رأسي وقررت اللحاقَ بمن فعل بي هذا. بدأت أمشي وتبين أنِّي أسير بدون عكازٍ وبسلاسةٍ ولم تعد قدمي معطوبةً، جرَّبت الركضَ، فكان جيدًّا ووجدتُ أنَّه باستطاعتي فعله، وسمعي أصبح قويًّا جدًّا حتى أنني سمعت دمدمةَ الفتية وعرفتُ اتجاههم. ركضت نحو الصوت، كنت أركض بطريقةٍ عجيبةٍ كأنني أحلِّقُ، شعرت بسعادة مفرطة، إذ لم أجرب الركض في حياتي، والآن أركض بحريةٍ. خلال ثوانٍ لحقتُ بالفتية وأبطأت حتى

أتبيَّنَ من أصواتهم وأعرفهم واحدًا واحدًا، بدأت أسير خلفهم. كانوا خائفين ويتلفتون، حيث تكلَّم أحدهم وكان طويلًا، وصوته جهوريًّا، ردَّ عليه آخر أقصر بعض الشيء وقد عرفته، كان الخبيثَ صاحبَ فكرة الحرق، لم يتكلم الثالث، وحين وصلنا أحد شوارع المدينة افترق الفتية، فعرفتُ أنَّ الفتى الصامت هو من قدح النارَ وكان صوته أشبه بالقرقرة. دخل الطويلُ والخبيثُ في أحد الأزقَّة ورجع الفتى الصامت نحو جدار المقبرة، تبعته، كان هو من أشعلَ النار ويستحق العقوبةَ، كان الأحمق يسير ويتلفت حتى وصل إلى بسطةٍ لبيع الماء والبخور. كان في البسطة رجلٌ عجوزٌ وامرأة معاقة في كرسيٍّ متحرِّك، قعد الفتى على الأرض بجانب الرجل العجوز وغاصَ في صمته، قال العجوز حانقًا وسأله: لم جئتَ بدون علب الماء الفارغة، وأين كنتَ كلَّ هذا الوقت؟ تلعثم الفتى في جوابه: جنٌّ.. طلعَ...، جنٌّ...

نظر الرجل العجوز نحو الفتى وقبل أن ينطق أطلقت المرأة المقعدة بضعَ شتائم، وعاود الفتى يتحدث:

- لكيت جنّ في المقبرة، كان داخل كبر فارغ.

نظـر الرجـل العجـوز باسـتهزاء، استرسـل الفتـى ذو الصـوت الـذي يشبه البقبقة حديثه: إي، جن، حتى اسأل سعد وحيدر رحنا للمقبرة سوية.

- وشـلون شـفتوه. قـال العجـوز واضـعًا يديـه خلـف ظهره.

- ما شفناه بس، بس، حجة ويانة وهو في القبر. قال الفتى وطأطأ رأسه.

- وشنو كال، دمدم العجوز.

- طلعوني، آني زاير من السماوة وكعت في الكبر.

ثـم أخذته رجفةٌ وأخـذ يـدنو مـن المـرأة المقعـدة أكثر حتى لامس عباءتها.

ردَّ العجوز على الفور:

- أي وبعدين.

قال الفتى وقد تغيَّرت نبرته من البقبقة إلى حالةٍ تشبه الكلام مع البكاء:

-كال سعد وحيدر خلي نحركه هذا جن وحركناه.

كانـت كلمـة أحرقنـاه لهـا صـدىً فـي أذنـي وتلمَّسـت جسـدي وملابسـي، وعنـدما لـم أجـد شـيئًا اطمـأنَّ قلبـي، لكنِّي تذكرتُ جسدي المحترق داخل القبر، وزادني ذلك غضبًا حتى حاولت أن أضربَ الفتى على رأسه بحجر.

أخذ العجوز باجترار كلام الفتى بصمتٍ، نهض ودنا من ابنه حتى كاد يلامس رأسه ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

- دير بالك تسولف، أبدًا، ولك هذا زاير واكع بالكبر والمسكين احترك.

أخذ الفتى يرتجف ودسَّ رأسه داخل عباءة المرأة. حين رأيتُ ذلك المشهد لم أعد أودُّ الانتقام وكنت أفكِّر: لِمَ لم ينتبه لوجودي الرجلُ العجوز ولا الفتى؟ اقتربتُ منهم أكثر ثم قلت وأنا أنظر للرجل العجوز:

- يا حاج أنا من كنت داخل القبر. لم يلتفت الرجل كأنَّني لم أتحدَّث.

- لِمَ يا حاج لا تنظر إلي؟ أنا من كنتُ في القبر وهذا ابنك الأحمق قامَ بحرقي.

لم يأتني أيُّ جوابٍ ولا حتى أدنى حركة تدلُّ على أنهم يعرفون بوجودي. تركتهم وتراجعت، كنت أكثر قلقًا على جسدي المحترق داخل القبر، ولا أعرف كيف أنا هنا. قررت الرجوعَ نحو القبر لعلّي أعرف ما أفعل. ركضت باتجاه المقبرة والصراحة كنت بين إحساسين متناقضين، شعرتُ بسعادة عارمة تشدني حين أرى نفسي أركض وأطير على الأرض، ومن ناحية أخرى بقلقٍ ورهبة حين أتذكر مصيري في هذا التيه. دخلت المقبرةَ

وأنا أركض كأنني على موعد، وقبيل وصولي لقبري المشؤوم، صاح عليَّ أحدهم، فوقفت فورًا وأخذت أبحث عن المنادي، كانت امرأةً تجلس على قبرٍ، نظرت لها بتعجبٍ، ماذا تفعل امرأة في المقبرة في هذا الوقت؟! أشارت لي لأقترب، وكانت تشير بيدها نحو قبرٍ أمامها، تشير لي أن أجلس عليه. الصراحة كنت خائفًا بعض الشيء، جلست أمامها، كانت امرأةً خمسينية، رأيت وجهها يتوهج مع ضوء القمر الشَّاحب، وتبينتُ ملامحَ وجهها، أنفها وعينيها، كانت جميلةً بحق. وحين تحدثتْ جعلتني في حيرةٍ أكثر، كأنها قذفتني في بئرٍ من التساؤلات، ماذا تعني بأنني عالقٌ؟ نعم، قالت: مسكينٌ أنت عالقٌ أيضًا.

- أين.

- أنت عالقٌ هنا، في المقبرة. ألم تعلم بعد؟ أنت ميتٌ.

- نعم، أعلم أنِّي ميتٌ لقد سقطت في قبرٍ وقام بعضُ الفتية المعتوهين بضربي بحجرٍ وحرقي داخل القبر. كانوا يظنون أنِّي جنٌّ أو شيطان، يا الله، أيُعقل أن تكون روح البشر هكذا رخيصةً وتذهب كالماء من بين الأُصابع بطرفة عين!

أنا ميتة أيضًا منذ ثلاثين سنة، هذا هو قبري إلى جانبك هنا على يمينك، انظر جيدًا كيف يبدو متسخًا، لم يعد أهلي يجيئون كما السابق، أنا وحيدةٌ هنا متُّ في عمر الخمسين، وها أنا أدفع ثمن خطيئتي وسجنتُ هنا طوال سنين جزاءَ كتماني وتخاذلي. حين متُّ فجأةً وجدت نفسي أمام قبري، لم أعرف ما حصل وكيف أنا هنا، لا يراني أحد ولا يسمعني، أخذت أدور ولا أعرف ما أفعل حتى التقيتُ بامرأةٍ عجوزٍ عالقة أيضًا في المقبرة القديمة، عرفت منها أنَّ العالق يجب أن يجدَ شخصًا عالقًا أيضًا حتى يحكي له حكايته، وبعدها يتحرَّر، يذهب إلى حيث تذهب الموتى. وبعد أن حكت لي العجوز عن حياتها اختفتْ فجأة، ومضتْ هكذا مثل ضوءٍ، وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن أجد شخصًا لأحكي حكايتي وأتحرَّر من هذا الوضع الخانق. لقد سئمت الانتظارَ، فالمكان يبعث على السأم، المكان وتوافد الناس خلف أحبتهم ومرارة فراقهم تثقل على روحي، وقد أتعب قلبي نواحَهم وعويلهم.

- وماذا عنِّي أنا؟ هل عليَّ الانتظار أيضًا، حتى أجد من أحكي له.

- نعم، بالطبع.

- هناك شيءٌ في حكايتك، كل الناس لها حكاياتٌ، لكن أعتقد أنَّ ثَمَّ حلقةً في تلك الحكاية مخفيةٌ داخلنا، وعلينا أن نحررها.

- دعني أحكي لك حكايتي قبل طلوع الشمس وتوافدِ الناس إلى المقبرة:

- لقد حدث أمرٌ وأخفيته، الصراحة كنت خائفةً، كان عمري عشرين سنةً، حيث حدث ذلك. نحن ثلاث أخواتٍ وأنا البنت البكر في عائلتنا، لم تنجب أمي أولادًا، وذلك جعل أبي حانقًا علينا دومًا، ثم ماتت أمي وأنا أبلغ من العمر اثني عشرة سنة، أخذتُ مكان أمي في تربية أختيَّ الصغيرتين، فكنتُ أقوم بالغسل والتنظيف والطبخ أيضًا، لكن أبي لم يصبر بعد وفاة أمي، وطموح حصوله على ابنٍ يخلفه قائمٌ، فتزوج من امرأة من أقاربه وجاء بها لبيتنا، كانت امرأةً صامتةً في منتصف عقدها الرابع، لا تتكلم كثيرًا لكن تعمل مثل بغلةٍ، والأهمُّ من ذلك حبلت سريعًا وأنجبت لأبي ولدًا، وأصبح أبي ينظر إلينا مثل خطايا، أو كذنوب تقبَّلها على مضض.

كانت زوجة أبي فريال تحاول أن تكون مكان أمي وتعملَ على جذبنا إليها، كانت تقترب لكنَّنا نبتعد أكثر، لقد كرهناها بجدٍّ وإصرارٍ رغم اهتمامها بنا، وصرتُ أنا

بالتحديد أبحث عن كيفية إيذائها وإذلالها بلا أيِّ ذنبٍ وبدون أيِّ شفقة. حين بلغ ابن فريال العامَ والنصف تبيَّن أنه لا يرى! نعم، كان أخي رضا أعمى، فرحتُ كثيرًا وأخذت منِّي الشماتةُ بزوجة أبي مبلغًا عاليًا جدًّا، وأصبحتُ أطلقُ الكلماتِ الجارحة والألقاب على رضا. كانت فريال تحبُّ رضا حبًّا عجيبًا، ولم يكن للعمى أيَّ بادرةٍ لليأس بالنسبة لها. أصبح بعمرِ الرابعة، أخذ يكبرُ وحقدي يكبر وينمو أيضًا. في أحد المساءات وكانت فريال تحلبُ البقر، اقترب رضا من جدول الماء، كنت أنظر من نافذة الغرفة، بعد خروجي من الحمام، رأيت رضا يترنحُ وأقبل على جدول الماء، أردت أن أصرخ لكن شيءٌ في داخلي منعني من ذلك، أخذ قلبي يدقُّ بسرعةٍ مثل رشقةٍ من الرصاص، أخذتُ أعدُّ خطوات رضا نحو الجدول، كانت خطواتٍ بطيئةً تعادل سنين، كلُّ خطوةٍ تنفد ينفد معها شيءٌ من روحي، لقد شعرت بشعور غريبٍ، خليطٌ مرعبٌ من الأحاسيس المتناقضة، إنَّها ببساطة عبارةٌ عن فرحٍ غامرٍ مع خوفٍ لا يطاق، كنتُ أرتعش مثل سعفةٍ، وشيء في داخلي يضحك ويكركر، لقد تراقصتْ في أعماقي روحين؛ واحدةٌ لقتله وأخرى لأمٍّ مقبلة على أن تُثكل. كانت آخر خطوةٍ لرضا تعادل

صفعةً على وجه البشرية كلِّها، سقط رضا في ماء الجدول العميق وأخذ يحرك أطرافه على غير هدى، غطس ثم خرجَ طرفُ ثوبه، وبعدها ذهب في جوفِ الجدول تحت صفحة الماء الراكدة.

أصبحت فريالُ تجثو أمام الجدول وتنوح على رضا، تلطمُ وتناديه حتى بُحَّ صوتها، ثم بدأت تقعد راكدةً بلا حراك مثل شاهدِ قبرٍ، حاول أبي إخراجها من عزلتها والتخفيف عنها لكنَّه فشل في ذلك. لقد تقوقعت على نفسها أكثر وذهب كلُّ طعمٍ للحياة مع رضا تحت الماء، لم تفارق الجدولَ طوال النهار، ثم زرعتْ شجرةً على حافة الجدول وأخذت تسقيها وتهتمُّ بها، لقد ساعدها ذلك، وبدأت تتكلمُ وتهتم بالشجرة كأنَّها رضا، وعندما أراها تكلم الشجرة وتحنو عليها يمتلئ قلبي بالغيض، وتبدأ روحي تفورُ حقدًا. أخذتُ أفكِّر وأحاول إيجاد طريقةٍ لحرمانها من سلوتها، كان حقدي يقودني مثل حيوانٍ بلا شعور. وفي أحد الأيام، خرجتُ في الصباح الباكر ودلقت طاسةً كبيرةً من النفط في جذر تلك الشجرة، لم تنتبه فريال في بادئ الأمر، لكن بعد أن أُصاب الشجرةَ الذبولُ أخذت تنوح مرةً أخرى وتلطم وجهها، وحين يبست شجرتها تمامًا تركت بيتنا وهربت،

ولم نعرف عنها شيئًا، إلَّا أنَّ الشجرة أخذت تنمو مجددًا وصارت كبيرةً، وأطلق عليها أهل القرية شجرة رضا. سكتت المرأة وأخذ وجهُها يشعُّ بنورٍ غريب، وأخذ يتوهج أكثر فأكثر، حتى أنَّني لم أعد أستطيع رؤيتها ولم أعلم بعدها شيئًا سوى أنَّني ممدَّدٌ على سريرٍ في ردهة الحروق.

الشِّماغ الأحمر

رحمكِ اللهُ يا عمتي، مضى عليك يا عمتي تحتَ التراب ثلاثةُ أيامٍ، آه يا عمتي. كانت عمتي في الخامسة والستين من عمرها، لم تفارقها الابتسامة بيننا. نعم، أقول بيننا لأنَّها لم تبتسم في مكان آخر، حين تنهض وتدخل غرفتها تفارقُها الابتسامة وتجلس متجهمةً لا تلوي على شيءٍ سوى النظر في المرآة، ثم الاستلقاء على السرير وتضمُّ ذلك الشماغ الأحمر لصدرها، تقبِّلُه وتشمُّه كأنها تتنفس من خلاله. لم تتزوج عمتي، لم يأتِ لخطبتها أحدٌ قط، ظلت تنتظر أن يأتي لها عريسٌ، فحين أخذ العمر بالتقدم أصابها الرعبُ وأخذت تراقب قطارَ العمر بتوجس، تخشى أن يأتيَ مسرعاً ويتركها واقفةً أمام شباك الحياة المغلق بوجهها، لم تتوان في الذهاب لمراقدِ الأولياء طلباً للرزق. كانت أمي ترافقها في زياراتها وتهجّدها في شبابيك الأضرحة، تدعو وتذرف الدموع، لقد أسرفت في إلقاء النذور في شبابيك السادة والأئمة،

تقول أمِّي حين ذهبنا لمرقد السيدِ وكانت المرة العاشرةَ التي تزور فيها مرقده الشريفَ، أخذت تهزُّ الشباكَ بقوةٍ وتتكلم بصوتٍ مرتفع، كانت تقول وتبكي بنحيبٍ متقطع: لِم يا الله لم ترزقني بزوجٍ، الوحدة تقتلني، لا أطلب منك أن تزوِّجُني من أميرٍ أو ملكٍ، أريد زوجًا كما النساء، هل هذا كثيرٌ يا الله؟! حتى وإن كان مثل عبودٍ بائعِ السمك. وحين يئستْ كلَّ اليأس ولم تجد أيَّ إجابةٍ لدعائها وتوسُّلاتها، أخذت تفكر بالذهاب للمنجمين وقارئي الأكف، منهم من قال لها أنَّ ثمَّة امرأةً أخذت من أثرك وأحرقته في مقبرةٍ، ومنهم من ادَّعى أنَّ ثمَّة شيئًا ما قد خُطَّ على جبينها منذ ولادتها، ثم حين ذهبت لامرأةٍ عارفة أوعزت لها بثباتٍ وكأنها تعلم علمَ اليقين أنْ ليس لها أيُّ قسمةٍ أو رزق في مسألة الزواج، وأنّه عليها أن تعيش حياتها على هذا النحو. أخذت تعيش معنا وتبتسم رغم المرارة في داخلها، تضحك معنا وتحكي لنا عن أحلامها بطريقةٍ ساخرةٍ، تقول: مرة حلمتُ أنِّي في عرسٍ وثمَّة رجالٌ كثرٌ يرقصون ويغنون، اقترب منِّي أحدهم وأخذ يرجوني لأقبلَ أن أكونَ زوجةً له، لكني رفضت وتركته يبكي خلفي. ضحكنا وسألنا لم يا عمَّة لم تقبلي؟ قالت في نوبةٍ من الضحك: كان طويلًا مثل نخلة. قبل

حفنةٍ من السنين كانت تذهب لزيارةِ قبرِ جدي، وجدتْ في طريقها ذلك الشماغ الأحمر، أخفته تحت ملابسها حتى لا نجده في حقيبتها؛ لأنَّنا في العادة حين تذهب للزيارة تأخذ حقيبتها، فثمَّة الكثيرُ من الأشياء التي تجلبها لنا. أخذنا نراقبها خلسةً من فتحة الشباك، كانت تضمُّ الشماغ الأحمر لصدرها، تنام وتضعه على وجهها، تشم رائحتَه وتتخيَّل صاحبه، ربما أيضًا تتلمس عضلاته وشعر صدره لعلَّها تعتقد أنه رجلٌ طويلٌ وعريضُ الأكتاف، تتكور أحيانًا في منامها كأنَّها تلبدُ بين ذراعيه القويتين وتغفو بين أحضانه. ذات مرةٍ دخلت غرفتها وفتحت خزانتها، وأخذت أبحث عن الشماغ، كانت تخفيه تحت ملابسها، وجدت أنَّها وضعت في داخله سُبحةً وزجاجةَ عطرٍ رجالي ومحبسًا من الفضة وحرزًا مغلفًا بقطعةٍ من الجلد كتعويذةٍ للحفظ، كانت تخشى أن يصيبه أيُّ مكروه.

حياةٌ وموت

كان يومًا ليس كسائر الأيام، يومًا أحمر. سُفكت فيه دماءُ ظالمٍ ومظلوم على حدٍّ سواء. قام بعض الفتية ممن تجشَّموا عناء المقاومة ضدَّ حكومة صدام والبعث الذين خلخلوا أركانَ الحياة وبطشوا بالناس بلا رحمةٍ، وأمعنوا بأذيَّة الخلق. قام هؤلاء الفتية بالهجوم على أحد الفرق الحزبيَّة بالقنابل اليدويَّة مع أولِ ساعات المساء، قُتل ثلاثةٌ من أزلام البعث وأُصيبَ آخرون وقتل أيضًا اثنان من الشباب المهاجمين. والكلُّ يعرف ما سوف يقوم به البعثُ في هكذا موقفٍ، سوف تبدأ سلسلة الاعتقالات العشوائيَّة، وتذهب مئاتُ الشباب إلى مصيرٍ مجهولٍ لا يعلم به حتى الضاربين في العلم وقارئي الأكفَّ، وحده الله يعرف ما هو المصير، وكيف سوف يموتون وعلى أيِّ طريقةٍ، وكم يستغرق عذابَهم قبل أن تدبَّ الشفقة في قلب معذبيهم ويتمَّ قتلهم. في ذلك المساء الأحمر عدتُ من عملي منهكَ القوى ولا ألوي على شيءٍ سوى طلبِ

الراحة بعد يومٍ طويلٍ من الانكباب أمام ماكينات السيارات، وبما أنَّني في الخامسة والعشرين فقد بتُّ هدفًا للأمن لا محال، وخصوصًا بعدما تبيَّن لي أنَّ أحد المنفِّذين كان من أبناء الحيّ، حيث أسكنُ، فلا بدَّ من الهلع والرعب. نعم، يجب أن أُصابَ بالرعب ويصابُ أهلي كذلك، هكذا عمل في ذلك الزمن عبارةٌ عن قنبلةٍ موقوتة تذهب بروحك وأرواح أحبَّائك ومعارفك وجيرانك إلى بئس المصير.

لم أفكِّر كثيرًا، فقرار الهرب كان الأكثر سلامًا. عند الباب وجدت أمي واقفةً تبكي وتحمل حقيبةً مصنوعةً من شوال طحينٍ قديمٍ، وقد وضعت داخلها بعضَ الملابس والطعام ومن ثم على الفور قبَّلتني ودفعتني للهرب: يمَّ اشرد شوفلك جارة، دير بالك يمة، روح، روح، ما أعرف يمة وين تروح روح والله يحميك. قبَّلتها وطمأنتها على أنَّ الأمور سوف تكون بخير رغم شحوب وجهي، وعلامات الرعب واضحةٌ في عيني. انطلقتُ لا أعرف أين أذهب، وفي نهاية الشارع التقيت برجلٍ من الحي، قال الرجل على الفور حين رأى حقيبتي وعلامات الخوف باديةٌ على وجهي: وليدي البيوت مو أمان، والناس ما تحفظ، اطلع للهيمة شوفلك مكان خارج

المدينة كم يوم لحد ما تخلص هل المصيبة. ثم دلف إلى بيته بعد أن تلفَّتَ يمينًا ويسارًا بطريقةٍ زادت من رعبي. أخذت أسيرُ في الأزقة التي تؤدي لخارج المدينة، أسير بخطواتٍ طويلة حتى أتحاشى الهرولة وألفت انتباه الناس. عبرت آخر بناياتِ المدينة نحو المجهول الذي يبدو لي أكثر رحمةً وأمانًا من المكان، حيث أعيش وحيث يكون البشر. حين أمعنت في السير في الأرض البور التي كانت خاليةً من البيوت والبشر كأنَّها مقبرةٌ مهجورة، عجزتُ عن اتخاذ أيِّ قرارٍ، ولم أعرف إلى أين أسير وبأيِّ اتجاه، أمسيتُ أجهل الشرق من الغرب والجنوب من الشمال، رغم أنَّ القمر كان كريمًا معي، وأخذ ينشر نوره الفضيَّ على الأرض وعلى نبات العاقول والطرفاء التي كانت تنتشر بكثرةٍ في تلك الأرض. مشيتُ كثيرًا ولم أجرؤ على التوقف حتى لم أعد أستطيع تحريك قدمي، تعبتُ كثيرًا ولم يعد بمقدوري السيرُ خطوةً واحدة. رأيت شجيرةً من الطرفاء، كانت بحجمٍ كافٍ لأختبئ تحتها، كانت أوراقها كثيفةً، أوراق كأنها خيوطٌ تشبه تمامًا أوراق أشجار الأثل، ولها أغصانٌ كثيرة ومتفرعة في كلِّ الاتجاهات، وكان يحيط شجيرةَ الطرفاء نباتُ العرد الأخضر الرطب حيث تفوح منه رائحةٌ أجهل

ماهيتها. اختفيتُ داخل أغصان الشجرة ولم يستطع أحد رؤيتي لكثافة أوراقها وإحاطة نبات العرد الذي يشبه القبابَ بالمكان.

أدخلتُ يدي بالحقيبة فوجدت بعضَ الخبز والخيار، قمتُ بلفِّ خيارةٍ بقطعةٍ من الخبز وأكلت، وبعدها عمَّ الهدوء في رأسي قليلًا، وأخذ سكون الفلاة شيئًا من خوفي. وضعت الحقيبةَ على جذع الشجيرة وأسندت ظهري إليها. غفوت ولا أعرف كم من الوقت أخذتْ إغفاءتي، ولكن أعي جيدًا أنِّي غفوتُ، كنت عطشان ولا أعرف كيف نسيتْ أمِّي أن تضع لي الماء، لقد أخذ الخوفُ منها تركيزَها. بعد دقائق من التفكير بالمصير المجهول الذي ينتظر مواربًا أمام حياتي، سمعت صوتَ خفيفٍ، دمدمة، وقع أقدامٍ، نظرت باتجاه الصوت فرأيت رجالًا قادمين نحوي، لم أتبيَّنْ ماهيتهم، كانت هيئتهم شبحيةً بسبب انعكاس ضوء القمر على أبدانهم، كان مسيرهم يدعو للريبة وكانوا يتهامسون. ثمَّة شخصٌ آخر يأبى أن يتقدم ولكنَّهم يجبرونه ويدفعون به مثل شاةٍ مقبلة للذبح، اقتربوا من الشجرة حيث أختبئ وقال أحدهم: هنا، هنا يمَّ الطرفة العالية). خفتُ كثيرًا ولملمتُ نفسي وانخفضتُ كثيرًا حتى بدأ الترابُ يلامس وجهي، أخذتُ

أراقبهم وأتبيَّنُ أمرهم، كانوا أربعةً والخامس امرأة، اثنان يحملون السلاح واثنين رأيت بأيديهم معاولَ وفؤوسًا. كانت المرأة تحاول التملصَ والتوقفَ عن السير لكنَّ الرجل الذي يغطي رأسه بشماغ يعالجها بأخمص البندقية على رأسها وجسدها، ويفعل ذلك كلّما ارتفع صوتها، كانت تئنُّ أنينًا يبعث على الرعب. المسافة القريبة وضوء القمر جعلاني أراهم جيدًا دون التعرف على ملامحهم، بدأ اثنان منهم بالحفر وعرفت أنَّ الثلاثة كانوا شبابًا من حركاتهم الرشيقة، لكنَّ الرابع صاحب الشماغ كان كهلًا يتحرك ببطءٍ، أشار الكهل للرجلين بأن يحفرا بشكلٍ أسرع، صرخت المرأةُ فأسكتها الكهل برفسةٍ.

لقد كانت الأرض قاسيةً، عرفت ذلك من صوت المسحاة التي كانت ترنُّ حين تصطدم بالأرض. همَّ الشباب بالحفر وأخذوا يضربون بالمعاول، كان ثالثهم يقرفص خلف الكهل واضعًا كفيه على رأسه، زحفت الفتاة وانكبَّتْ تقبلُ أقدام الشاب ثم تنتقل للرجل الكهل ويرفسُها بدوره ولا يردُّ بكلمة، تطلق صرخةً أخرى من جديد، الصرخة ذاتها التي أطلقتها قبل دقائق، لكن أكثر حدةً وأكثر ألمًا، مزقت صمتَ المكان وهزَّتْ قلبي مثل صعقةٍ كهربائية. عرفت أنَّ المرأة على شفا قبر، مقبلة

على موتٍ محتّم، لم أستطع فعلَ شيءٍ فالرجال كانوا مسلحين وأنا وحيدٌ وخائفٌ ولا أعرف مصيري. أخذ صوتُ الأنين يستمر، وأخذ الشاب المقرفص يبكي أيضًا، أخذ الحفارون بالهبوط داخل الحفرة، وبدت أكثر عمقًا، ولم يخرج من الرجلين سوى رؤوسهم، والكهل يطلبُ منهم النزول أكثر. كنت أرى بوضوحٍ ارتجافَ المرأة، كان جسدها يهتزُّ مثل سعفةٍ في يومٍ عاصف، وكانت تطلب الرحمةَ من الكهل وترجوه وتحلِّفه بكلِّ أيمانات العالم والأنبياء والأئمة ثم أسماء السادة والأموات، لكن الرجل صاحب الشماغ لم يُعِرْ أيَّ أهمية لتلك التوسلات وكأنَّه صُبَّ من حجرٍ وليس من دمٍ ولحم. كان قلبي يتفطر مع توسلاتها، وصوتُ بكاء الشاب الجالس يعلو أكثر حتى نهره الكهل وشتمه. خرج الشابَّان الآخران من الحفرة بعناء، وحين شاهدتهم المرأة، فأخذت تزحف وتصرخ، عالجها الرجلُ الكهل على الفور بضربةٍ قاسية على رأسها، ضربة أسكتتها على الفور، ولم تعد تصرخ ولا تئنُّ، أخذت تشخرُ ولا تتحرك، فحملوها للحفرة وقذفوا بها مثل حجرٍ، ثم طلب منهم الكهل أن يردموا الترابَ بسرعة. لم أعِ أنَّني أبكي وقد غرستُ أُصابعي بالتراب بقوةٍ حتى تألمت، كنت أرى روحًا بريئةً تُزهق،

كائنًا ضعيفًا يموت بلا رحمة، امرأة مسكينة تختنق تحت التراب. أخذوا يردمون التراب فوق جسدها، والشاب المقرفص يلطمُ على رأسه، حاول أن يلقي بنفسه داخل الحفرة لكن الرجلَ أخذ يلقِّمُ البندقية وحلف أن يطلق عليه النار، تراجع المسكين على الفور. أمَّا أنا فكنت أفكِّر بالمرأة ومصيرها المحتوم، هل ماتت؟ ماذا لو ذهبوا؟ هل أستطيع إخراجها من التراب، وكيف؟ أكمل الرجال ردمَ الحفرة، ومساواتها مع الأرض، ثم جمعوا معاولهم وأسلحتهم وذهبوا. انتظرت حتى ابتعدوا وخرجت على الفور نحو الحفرة وبدأت أزيح التراب وأحفر، كنت أغرس أُصابعي وأحفر بسرعة محاولًا إنقاذها، بدأت أعدُّ أنفاسها، ولم يكن معي شيءٌ أستعين به للحفر، فلا أملك سوى يدي. أخذتني نوبةُ بكاءٍ ونوبةٌ من الجنون، كنت أحفر وأرمي التراب للأعلى حتى يرجع على رأسي، فالحفرةُ عميقةٌ وكفَّين صغيرين لا يفعلان شيئًا أمام هذا الكمِّ الكبير من التراب. بدأ اليأس يتسلل إلى قلبي كلّما أهدرت من الدقائق، كان الوضع مخيفًا ومرعبًا أكثر من الموت نفسه، سباق بين الموت والحياة، سباقٌ شاقٌّ وصعبٌ جدًّا. بدأت طلائع الغجر تزحفُ من الأفق الشرقي وأخذ الظلام بالتقهقر رويدًا رويدًا، وأنا أحفر

مثل جرذٍ مجنون. لمستْ أُصابعي شيئًا من القماش، ارتعش جسدي مثل سعفة وأنا أحاول تتبع قطعة القماش لمست أُصابعي جسدها وزاد ذلك من إصراري، فبدأت أبحث عن رأسها لعلي أخرجه للهواء، وفعلًا نجحت في إخراج رأسها أولًا، لم أجد أيَّة ردة فعلٍ أو حركة، كان جسدها ساخنًا، أخرجتُ كامل الجسد من التراب، كان رأسها مخضبًا بالدم والتراب حتى وجهها ضاعت ملامحُه. أخرجتُ قطعة قماشٍ من حقيبتي ومسحتُ وجهها حتى بانت ملامحها مع ضوء الفجر الباهت، وأخذ ينعكس على وجهها الذي بدا لي كوجهِ ملاكٍ، وشدَّ قلبي لجماله، كانت فتاةً جميلة، جمالًا يوحي بالبراءة والسكينة. وضعت أذني على صدرها، لم أسمع أيَّ شيءٍ، لم يكن هناك نبض، بدأتُ أفعل كما في الأفلام، أنفخ في فمها وأضع راحةَ يدي على صدرها وأدفع، انفخ وأدفع، أنفخ وأدفع. بدأت دموعي تسقط على وجهها الذي يتألق مثل نجمةٍ، وحين تعبتُ ولم أستطع تحريك يدي فوضعتُ رأسي على صدرها ولم أقدر على رفعه، كنت أتنفَّس بسرعة، كنت خائر القوى، الترابُ الذي أخرجت من الحفرة يكفي لدفن ثلاثةِ رجال، كانت أصابعي تؤلمني كثيرًا. ثم بدأت أسمع

دقاتٍ خافتة، دقاتٍ غير منتظمة، أسمعها ثم تذهب وتعود حتى أخذتْ تعلو أكثر، رفعت رأسي وقرَّبتُ أذني من أنفها، كانت تتنفس ببطءٍ شديد. فرحت كثيرًا، فسحبتها نحو كوم التراب وجعلتها تستلقي بطريقةٍ تساعدها على التنفس، ثم ربطتُ جرحها بخرقةٍ ورجعت للحفرة أبحث عن عباءتها حتى وجدتها، ونفضتها من التراب ورجعت نحو المرأة، وحين ركَّزتُ قليلًا على جسد المرأة كان بطنها منتفخًا بعض الشيء، اقتربتُ أكثر وتفحَّصتُ بطنها بيدي، كانت هناك حركةٌ جعلتني أجفل وأسقط على ظهري، المرأة حاملٌ والطفل يتحرك في بطنها. كان تنفُّسها يعيد وتيرتَه، ودبَّت فيها الروح وأخذت تحركُ رأسها ثم بدأت تئنُّ، بدأت أحاول إيقاظها، فقد كنت خائفًا أن يرجع الرجال فيجدوني قد أنقذتها فيقتلوني. استعادت وعيَها، لكنها لا تقوى على النهوض، أخذت تركِّزُ وتفهم ما أقول. حلَّ الصبح وبدأ نور الشمس ينشر ضياءَه، ألبستها عباءتها وحملتُها على ظهري وأخذت أسير لا أعرف أين أذهب وماذا أفعل، سرتُ نصفَ ساعةٍ ولم أقوَ على الاستمرار، كنت مرهقًا جدًّا، فوضعتها على الأرض وقعدتُ بجانبها، كانت عطشى، فطلبت مني الماء أكثر من مرةٍ المسكينة. رأيت أن ثمَّة بنايةٍ على مقربةٍ منَّا

لم أراها ليلة أمس، بدأت المرأة تستعيد قواها، ساعدتُها على الوقوف ومضينا نحو البناية، كانت دائرةً حكوميةً أشبه بكراجٍ، وهناك عجلاتٌ قديمة وماكيناتٌ ثقيلة، لم أجد داخلها سوى حارسٍ واحد، حين شاهدني أُقبل عليه وقد غطَّى التراب جسدي، ألقم بندقيته التي كانت معلقةً على كتفه فرجوته وحكيت له كلَّ شيء. كانت هيئة الرجل تدلُّ على أنَّه من الريف، رحَّبَ بي وطلب مني جلبَ المرأة لتستريحَ وتشرب الماء. دخلنا في أحد غرف البناية وعرفتُ أنَّ للمرأة أقاربَ في محافظةٍ أخرى تستطيع اللجوءَ إليهم وتعهَّد حارس البناية بمساعدتها وإيصالها لهم، شكرتني وأخذت تبكي وقد بكيت معها. أمَّا أنا فقد طلب منِّي الرجل الاختباءَ بضعة أيامٍ حين أخبرته عن قصتي وسبب تواجدي في هذا المكان.

في ليلة شتاءٍ باردة

كانت ليلةَ شتاءٍ باردة، يضيئها قمرٌ خجولٌ، يطلُّ بين فينةٍ وأخرى من خلف الغيوم. في شتاء ١٩٩٦ قد بلغت الثامنةَ عشرة، وقد جئتُ هذه الليلة للمبيت في منزل نسيبي الذي سافر بمعية عائلته وكلفني بحراسته. لم أستطع النومَ ليلتها، دخَّنتُ كثيرًا وفكَّرت أكثر، وبدأ ينشب صراعٌ دامي بين الأفكار وحالة التحول التي يمرُّ بها من هُم في سنِّي. كان ذلك العمر برزخًا يفصل بين الطفولة والرجولة وعليَّ عبوره بأقلِّ كلفةٍ، وعليَّ توخِّي الحذر جيدًا. تعصف برأسي أفكارٌ وأحلامٌ كثيرة، خليطٌ مزعجٌ وغير متجانس، أبحث عن نفسي بين ركام الأفكار الطفولية وحياة الصبا التافهة، أريد ثوبًا يليق برجل. أحسست باختناق، وأردت أن أتنفَّس هواءً باردًا، خرجت من المنزل الذي كان يطلُّ على الشارع الرئيسي الرابط بين الجنوب والعاصمة بغداد، وأخذت من الرصيف مقعدًا لي، وقد كانت ساعتي تشير للواحدة والربع بعد

منتصف الليل، كان الشارع فارغًا والجو باردًا جدًّا، وعدد السيارات في ذلك الزمن قليل، وبين مرور سيارةٍ وأخرى تمرُّ ساعاتٌ طوالٌ. جلست صامتًا غيرّ آبهٍ بالبرد، كان في داخلي شبقٌ عارمٌ، وروحي هائمةٌ تستحضر صور النساء اللواتي أشاهدهنَّ بالتلفاز أو أفلام السينما، تذكرت أمسَ الأول حين شاهدت فيلمَ المنسي لعادل إمام، وكان يجلس وحيدًا مثلي حين أطلَّتْ عليه يسرى بثوبها الممزق وجذعها العاري وحركاتها الغنوج. استحضرتُ سيقانها وشفتيها الناضجتين، تنهدتُ بعد ذلك بحسرةٍ وقلت في سري: هل تحدث لي معجزةٌ كعادل إمام وتخرج لي امرأةٌ من العدم؟ وكررت ذلك مرارًا: هل تخرج لي امرأة مثل يسرى الآن من أحد البيوت أو تنزل من سيارةٍ فجأة؟ أشعلت سيجارةً وأخذت أنفث دخانها نحو السماء. أقسم لكم أنَّ المعجزة حدثت وقد رأيت امرأةً تخرج من الفرع المجاور للمنزل، لم أصدق ما رأته عيني، امرأةٌ في ذلك الزمن وحيدةٌ بعد منتصف الليل؟! أمرٌ محال! لكنَّه حدث بالفعل. قفزت واقفًا وأحسستُ بتيارِ هواءٍ ساخنٍ يضرب وجهي، وتبدَّد الظلام الشتائي فجأة. وقفتْ على الرصيف تنظر للشارع الفارغ من السيارات والمارة، التفتتْ ورأتني واقفًا، بدأت تخطو

باتجاهي، كانت تسيرُ بخطىً قصيرةٍ تحاول إظهار أنَّها لا تبالي ولا تخاف وحشةَ الليل، كان وجهها كفلقةِ القمر تحيطه هالةٌ من النور، وكان الضوء ينبعث من يديها وقدميها، تنتعل خفًّا بلاستيكيًّا ورديًّا جعل قدميها كحبتي توتٍ بريٍّ. بعد أن تيقنتْ تمامًا من عدم مرور سيارةٍ تقلُّها سألتني، فأكدت لها عدم مرورِ سياراتٍ في هذا الوقت. نظرت في عينيَّ وقالت: عندك مكان أبات واخليك؟ كانت عاصفةٌ أخذت بأشرعة روحي وحطمت سواريها، (اخليك)، كلمة هزَّت كياني وروحي البتول، (اخليك) مثل قطيع أسود، جوقةٌ من خفافيشَ تضربُ جدران رأسي، سربٌ من النمل انقضَّ على دماغي، آلافُ الحيوانات المنوية اخترقت خلايا جسمي، كلمةٌ فتحت أبواب الجحيم وبدأت غاراتٌ من الأفكار والصور، ماذا لو علم أبي؟ هل سوف يضربني بلا رحمة؟ ثم حجبت ذلك صورة المرأة عارية أمامي، خفقتْ تحت إبطي نظراتُ نسيبي وكيف سوف يتهمني بالخيانة وجعْلِ بيته محطةً للبغاء، لكنَّ صورة صدرها الناهد أسدلت ستار الأفكار السوداوية وجعلت كلَّ شيءٍ ربيعًا أخضرَ نابضًا بالحياة. قالت لي فيما بعد إنَّها كانت مع شابٍّ أحمق

استغل غياب والديه، ولكنَّه تفاجأ بقدومهم على حين غرَّةٍ، ممَّا دعاه لرميها بالشارع فورًا.

أدخلتُها لغرفة استقبال الضيوف، وذهب لإغلاق باقي الغرف، الحقيقةُ كنت خائفًا أن تسرق شيئًا من المنزل، وأكون أمام مشكلة أخرى.

خلعت عباءتها فورَ دخولها الغرفة، كانت ترتدي معطفًا طويلًا، وحين بدأت بفكِّ أزرارِه ارتبكتُ وذهبتُ أنظر نحو الحائط، فلم تبالي بوجودي أبدًا، ووضعته على الأرض. كانت ترتدي تحته ثوبًا خفيفًا وقصيرًا، رأيت جسمها المدوَّرَ والمصقول بانحناءاتٍ تسرق اللبَّ، كنت أسترقُ النظر مثل صبيٍّ أفَّاق، وأتحاشى النظر لوجهها وشفتيها الحمراوين وأخاف أكثر حين تلمع عيناها الكحيلتين. حين رأتني مرتبكًا أخذت تصوب نظراتِها الليزريةَ نحوي وتضحك بغنجٍ. أخذت أقول في نفسي: اليوم سوف أدخل عالم الرجولة من أوسع أبوابه، وأغرق في حبِّ هذه المرأة الفاتنة. كانت رائحةُ جسدها تعبق أجواء المكان وتدغدغ روحي بمهل. بدأ قلبي يلبطُ في صدري مثل سمكةٍ، ويحاول الخروجَ من جسدي. (اخليك). آه، كلمة لها صدى لا ينقطع ويتكرَّر في أعماق روحي (اخليك)، وكيف وأنا لا أعرف شيئًا؟ لم أفعلها من

قبلُ، ولم أعرف عنها سوى ما سمعته من حكاياتٍ عابرة، وإشاراتٍ مشفرة، يخشى من هم أكبر منَّا عمرًا الإفصاح عن ماهيتها.

قلت وأنا أوجه نظراتي نحو الجدار: هل أنتِ جائعة؟ هزَّت رأسها وقالت: تعرف تطبخ؟ أِقْلِ البيض فقط. ولا يوجد سوى البيض، فخرجتْ نحو المطبخ ولم أستطع الصمودَ أكثر، كنت اختلسُ النظرات وأتربَّص حين تنهمك بترتيبِ شعرها الأسود المنساب على كتفيها، كانت عشرينيَّةً فاتنة، لم أرَ وجهًا بذلك الجمال الملائكي أبدًا، ولن أنساه. وضعت صينيةَ الطعام أمامها وأحضرتُ كوبين من الشاي وجلستُ في حضرتها كالآثم. ابتسمتْ لي وقالت: أنت ولدٌ (حباب). هل تشفق عليَّ أو تسخر من ارتباكي؟ لا أعرف، ربَّما. أخذتُ أتناول لقيمات الخبز والبيض غارقًا في بحرٍ لا هوادة فيه، أُشبع روحي بالنظر إليها. قالت بعد أن أنهت طعامها: خلِّي انطيك أجرة المبيت وأنام أنا متعبة. وأخذت تقهقه خالعةً ثوبها بخفَّةٍ ورشاقة، لم يكن هناك ملابسُ داخلية، هكذا كما خلقها الله، ولم يكن جسدًا عاريًا ينثال منه ضوءٌ ملائكي، كانت حديقةً مليئةً بالزهور والفواكه اليانعة. وضعت رأسها على الوسادة وفتحت ذراعيها لي وقالت: أعرف أنك لم

تفعلها من قبل، اقترب وأنا أساعدك. اقتربت منها وأخذت أغطي جسدها بغطاءٍ أحضرته لها للنوم، وضعتُ يدي على شعرها وقلتُ لها. لا، لا، نامي بسلامٍ وسوف أوقظك في الصباح الباكر، ليس عليك أن تدفعي أيَّ شيءٍ. أخذت تنظر في وجهي وفي أطراف عينيها دموعٌ حبيسة. مددتُ يدي ولمستُ خدها، كان دافئاً وناعمًا مثل الحرير، تأملتُ شفتيها وراودتني رغبةٌ في تقبيلها ورغبةً في أن أذوب في حضنها، لكنَّ شيئًا ما في روحي منعني من ذلك، فتركتها بسلام وخرجت أدخن وأحلم بمعجزةٍ أخرى.

كما يفعلون

كما يفعلون أيضًا، حصلتُ على قصبةٍ وأيضًا وضعت الخيطَ في أحد أطرافها وشددته بإحكام، وكما يفعلون أيضًا في طرف الخيط صنارةُ صيدٍ وبعد شبرٍ أو شبرين وضعتُ قطعةً صغيرةً من الفلين، وبنفس المكان كما يفعلون جلستُ، ووضعتُ حجرًا وقطعةً من الكارتون لا حجرين حتى أبدو كما يفعلون. أجلس على العرش الحجري وأُخرج الطُّعمَ، كان من العجين كما يفعلون، ثم وضعتُ قطعةً صغيرةً على سلاح الصنارة، وقذفت به نحو الماء ثمَّ كما يفعلون أشعلت سيجارةً وأخذت أنتظر. كان الرجلُ هناك في المكان الذي يبعد عن مكاني عشرةَ أمتارٍ يجذب الصنارة كلَّ عشرِ دقائقَ، ويجد سمكةً تلبط في الهواء، أحيانًا تكون من سمكٍ الشانك وأحيانًا سمكة شبوطٍ صغيرة ومرةً واحدةً كانت سمكةً كبيرةً، أعتقد أنَّها من أسماك الكطان. لم أفعل كما يفعلون، فقد ظلَّ الطعم في الماء والقصبة في يدي حتى صار المساء، وقبل أن

أهمَّ بالذهاب تحركتْ قطعةُ الفلين واهتزتْ اهتزازاً يدعو للقلق، سحبتُ صنارتي على الفور، ولكن ليس كما يفعلون، رفعتُها بسرعة أكبر، كانت صنارتي فارغةً إلَّا من جوربٍ قديمٍ ممزق. وحين لعبتُ كرة القدم مع أصدقائي ومثل كلِّ مرةٍ في حراسة المرمى قلت في نفسي: يجب أن أفعل كما يفعلون وأقفز للكرة مثل سهمٍ، أطير عاليًا وأتلقَّفها برشاقةٍ، وفي أول هجمةٍ سدَّد المهاجم كرتَه باتجاه المرمى، قفزت بكلِّ طاقتي وطرتُ مثل حمامةٍ كما يفعلون بالضبط وأمسكت الكرةَ أيضًا أفضل ممَّا يفعلون، وهبطت على وجهي وكُسر أنفي. هكذا أنا-كما قالت أمي: اقرأ يا ولدي كما يفعل أبناء خالتك، ووفِّر نقودك كما يفعل أقرانك، وافعل كما تفعل الناس. إلَّا أنِّي لا أعرف لِمَ لمْ ترضَ أمي حين قتلتُ القطة كما يفعل الأطفال ودفعت زميلي من درج المدرسة كما يفعلون عندما يدفع أحدهم الآخر، حتى آخر مرَّةٍ أمسك بي شرطيٌّ طويلٌ وأخذ يلكمني على وجهي، كنت أبكي بشدةٍ، لا أعرف لم يضربني وأنا لم أفعلْ شيئًا، لقد قتلتُ أمي كما يفعلون في الأفلام وهي التي قالت لي: افعلْ كما يفعلون يا ولدي.

يومُ الخلاص

كان يوم الثلاثاء من آخر الشهر الخامس لسنة ١٩٩٩، وهو أكثر يومٍ مريحٍ لعبد الناصر البنَّاء طوال حياته، منذ ولادته لم يحظَ بيومٍ كهذا. إنَّه يومٌ كان فيه هادئًا وساكنًا إلى أبعد حدٍّ، حتى أنَّه لم يكلف نفسه بتحريك جفنَيه، ولم ينطقْ بكلمةٍ أو حرف. تعلَّم عبدُ الناصر حرفةَ البناء من والده، وكسائر عمال البناء -آنذاك- التحقَ بكوكبة العمال في سنِّ السادسة عشرة، كان لجسده الضخم وبنيته القوية دورٌ في إخراجه للعمل مبكرًا، أمَّا دوره في العمل هو نقلُ الطابوق إلى حيث يقف البناء. وهكذا يبدأ من السادسة صباحًا حتى الثالثة عصرًا يحمل أبراجًا من الطابوق حتى تحولَت سحنته السمراءُ إلى صفراءَ بسبب غبار الطابوق، وبعد أكثر من سنةٍ تحوَّل من عاملِ طابوقٍ إلى عملٍ أكثر قربًا وفيه شيءٌ من الراحة على الأقل، أصبح يقف خلف البنَّاء الذي هو أبوه ويرفع الطابوق من الأرض لكفِّ أبيه، كان يهبط بجذعه ثم يقف ويمدُّها

نحو أبيه هكذا أكثر من ثلاث آلاف طابوقة يوميًّا، لم يتأخر في هذا المكان المملِّ، حيث يداهمك إحساسٌ بأنَّك مثل ذيلِ حيوانٍ يرتفع للأعلى ثم يهبط وهلمّ جرًا، حتى تبدأ تكره كلَّ من حولك. تحوَّل عبدُ الناصر بعد سنةٍ إلى مساعد بنَّاءٍ يقف بجانب البناء على السِّقالة، يمسك بيده مجرفةً صغيرةً ويبدأ بمدِّ خليط الإسمنت والرمل على طبقة الطابوق المرصوفة. إنَّه لعملٌ أكثر أناقةً وفي سلم العمل يعتبر من الطبقة العليا، لكن فيه شيءٌ من التعب، بل حركةٌ تجعل المرء في آخر النهار يسير مثل الأحدب، وهي استلامُ صفائح الإسمنت الممتلئة من أيدي العمال ثم نشرها على الطابوق، وهكذا مئات المرات. لكن وحسب النظام الداخليّ في منظومة عمل البنائين، يعمل البنَّاء على تكليف مساعده ببناءِ بعضِ الأبنية الصغيرة كتمرينٍ على ضبط الحرفة، فأصبح عبد الناصر بنَّاءً في حالاتٍ خاصة، مثلًا بناء جدارٍ فاصلٍ بين الحمام والمرحاض أو بناء جدرانِ الخزانات وأحيانًا جزءًا صغيرًا من الشرفة أو أي حائطٍ بعيدٍ عن نظر صاحب البيت. وهكذا حتى أصبح عبد الناصر بنَّاءً محترفًا وله جوقةٌ من العمال القادمين من الريف. أما حين أصبح عبد الناصر جنديًّا ولسوء الحظ صاح أمرُ

الوحدة العسكرية في جنوده وسأل عن بنَّاءٍ موجودٍ بينهم، فتلقَّفها عبد الناصر ورفع يده، وبعدها أخذ يلعن ذلك اليوم، وتمنَّى لو أنَّ يده قُطعت أو شُلَّت قبل أن يرفعها، لقد جعل الضابطُ عبدَ الناصر يعمل مثلَ بغلٍ.

أيُّها الجنديُّ، ابنِ لنا غرفةً للآمر.

أيُّها الجندي، ابنِ لنا مشجبًا للسِّلاح.

أيُّها الجنديُّ، نريد هنا بابًا، ومرصدًا هناك، أو اثنين من المراصد.

أيُّها الجنديُّ، هذا المشجب صغيرٌ، ابنِ لنا آخرَ أكبر، وضع لنا جدارًا يفصل بين السريةِ الأولى عن الثانية.

أيُّها الجندي، يقول الآمر أنَّ لديه عملًا في البيت، يريد قِنَّ دجاجٍ كبيرًا مع ترميمِ سياجِ المنزل.

ثلاث سنواتٍ وعبد الناصر يعمل مثل محكومٍ بالأشغال الشاقة. تزوجَ عبد الناصر من خيرية ابنةَ عمِّه، وأنجب ثلاثَ بناتٍ وولدين. أخذ عبد الناصر يواظبُ على عمل البناء في كلِّ يومٍ من الساعة السادسة حتى الثالثة عصرًا. حين تجاوز الخمسين لم يعد يستطيع تسلقَ السقالة والوقوفَ على ألواح الخشب، فكان عليه أن يجدَ عملًا آخر، فثمَّة أفواهٌ تريد المزيد، فلم يجد سوى عمل حارسٍ ليليٍّ في الحيِّ الصناعي، وهذا العمل يريد

شخصًا دائم التحرك، فهناك مئات الدكاكين والورش ومخازن المواد الاحتياطية، فكان يذهب في الرابعة عصراً حتى السابعة صباحاً. وهكذا أخذ عبد الناصر يتحرَّك طيلةَ الأعوام الخمسة وستين حتى جاء يوم الثلاثاء من آخر الشهر الخامس في عام ١٩٩٩، وحين كان في دوريته الليليَّة سقط عبد الناصر بعد أن أحسَّ بالاختناق، أخذ يجذب الهواءَ بعسرٍ كأنَّه يتنفَّسُ خليطًا من الرمل والإسمنت، وضع بندقيته جانبًا وقعد على الأرض متَّكئًا على إطار سيارةٍ كبيرةٍ، ولم يتحرك بعدها أبدًا ولم يحرك حتى جفنَيه.

سعيد الأسمر

تقول أمي: وُلدتَ في ليلةٍ كثيفةِ الظَّلام، وكان المطر ينهمر من السماء بجنون، والحالوب (البرد) يضرب سطوح الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل مثل مدافعَ إنكليزية. لم يكن لديها شموع والفانوس لم يدخل جوفه الزيت منذ مدةٍ، ولم يكن لديها أعواد كبريت أصلًا. وُلدت لأبٍ مقتولٍ على بطنٍ فارغة. في تلك الليلة لم تعرف أمي ماذا خرج من رحمها، ذكر، أنثى، تقول: كنتَ تبكي بطريقةٍ مخيفة أقرب منها للعواء، كنت تنوحُ مثل جريحٍ بكاءً مشؤومًا ومستمرًّا.

وُلدت في كوخٍ قذرٍ، وسقط رأسي في لجِّ ذلك العفن والرطوبة، وأمي تبحث بأناملها الملطَّخة بالدم بين فخذيَّ، لتصرخَ في ذلك الليل البهيم عن بشرى نازفة بالسمِّ عن ذكرٍ قليل الحظ. جاء في تلك الأجواء الفاسدة والهواء المتسخ. أسمتني سعيدًا وأرضعتني حليبها الممزوج بالقيح والشَّقاء، وبعد ليلتين أخذتني للمدينة،

حيث الخرائب والبرد والضباب. في ذلك الجحر كنت أصغي تحت أغطيتي القذرة، أسمع وأتعرف على أصواتٍ غريبةٍ ورتيبة لا تنقطع على طول النهار، كانت تشبه الصوتَ الذي يحدثه المطر، لكن أكثر حدةً وقساوةً، كان جحرنا البائسُ خلف شارع الحدادين.

هكذا بدأتُ أنمو في أزقَّة الشرقي الضيقة، وتشكلتْ روحي مع الطَّرق على الحديد السَّاخن وظلِّ الجدران المستمر. كنتُ أنمو بسرعةٍ على بطنٍ فارغةٍ مثل أبي، بين جوعٍ وشبعٍ، أملأ بطني من الفواكه والخضر المتساقط من عربات البقالين، كانت أمي تعمل في أحد مخازن الصوف، تعمل جاهدةً على فرد الصوفِ الأسود من الأبيض بأجرٍ بخسٍ لا يملأ البطن ولا يكسي الجسد. في سنِّ العاشرة صرتُ أصلبَ عودًا، واعتلت وجهي سحنةٌ سمراءُ، وبدأ عراكٌ حامٍ ينشب بيني وبين أولاد الحيِّ المقابل، ضربوني مرةً في شارع الصفارين وشُجَّ جبيني بحجر، وأشار لي أحدُ العطارين أن أضربَ بجبهتي وجوهَ الأولاد عكس ما كانت تقول أمِّي: "عضّ، عض يا سعيد بأسنانك كلّ من يحاول ضربك". أصبحتُ أنطحُ مثل الثور الهائج وأعضُّ مثل الكلاب المسعورة، أصبحت أطلقُ الشتائم وأسرق الأباريقَ والأواني النحاسية من

بيوت اليهود، بدأتُ أصرخ في وجوه الحدادين بصيحاتٍ عاليـة تفـوق حـدةَ الضِّـرب بالمطـارق، كنـتُ أصـرخ فـي وجـوههم بلغـةٍ مجهولـةٍ، خلـيطٌ مـن الحسـرة واللعنـات، أتعـارك وأضـرب، وحـين يصـيبني جـرحٌ أحشـوه بـالتراب لكي يشفى على الفور. في أحد صباحات الصيف الحارة قال لي أحد الصبية بأنَّ صاحب مخزن الصوف قد شتمَ أمِّي وبصقَ في وجهها. انطلقت نحو الرجل مثل الضبع المفترس، أخذتُ المغرز من الإسكافيِّ وغرزته في فخذ الرجلِ حتى بدأ يصيح مثل ثورٍ مذبوحٍ، وفي الليل كانت أمـي غاضـبةً منـي، رأيتهـا تبكـي، انتظـرتُ خـارج الكـوخ الطينيِّ حتى هدأتْ ونمتُ قربها.

بـدأ الجميـع ينـادونني سـعيد الأسـمر، وفـي غيـابي ابـن المعيدية، فأستجيب لهـم دون أن أعـرفَ مـن أنـا ومـن أيـن أتيـتُ. كنـت ضـائعًا، تائهًـا فـي خضـم جلبـةِ المطـارق والناس.

حين بلغتُ مبلغَ الرجال، كانت جبرية ابنةُ السمَّاك قد أصبحت امرأةً، لا أعرف ما فعلت بي، صرتُ أتبعها حين تخرج وأبدأ أترنَّح حين أشـمُّ ذلـك العطـر الفـواح الـذي يتبعها أينما ذهبت، تمضي كلَّ صباحٍ بوجهها المصقول مثـل اليـاقوت ملتفَّـةً بعباءتهـا، تسـير بغـنجٍ وهـي تحمـل

الطعامَ نحو النهر. لقد ضربتُ وتعاركتُ مع كلِّ الشباب الذين يحاولون الاقترابَ منها. تزوجتها في كوخ أمِّي الذي ماتت بعدها بالتدرُّن بسبب كمِّ التراب الذي تتنفَّسه أثناء فرد الصوف، فكرهتُ الصوف، والسوقَ والحدادين، أخذتُ جبرية نحو الريف حيث عاش أبي ومات جائعًا، لعلَّنا نستطيع إنجابَ ذكرٍ آخر سيِّءِ الحظِّ في ليلة شتاءٍ ماطرة.

حلم

لا تصدقوا إذا قلتُ لكم أنَّني لم أحلم منذ سنوات، وهذا أمرٌ اعتدت عليه، لم أحلم إطلاقًا ولا حتى لمحةً واحدة، لا أعرف السبب الحقيقيَّ وراء ذلك، لكن أعتقد أنَّ عدم إيماني بالأحلام حالَ دون ذلك، وأغلق عقلي الباطن بابَ الأحلام إلى الأبد، هذا ما كنت أعتقدُ وسلَّمتُ له. لكن في ذلك المساء، الذي لم يكن استثنائيًا، بل كان مساءً عادياً، كنتُ في الحلم مع جمعٍ من العوائل، ولا أعلمُ سبب وجودنا في ذلك المكانَ الغريب، كانت بناية كبيرة ومهجورة، بناية تشبه معتقلًا وسط الصحراء، وكان في ذلك اليوم قد حان وقتُ الرحيل وبدأت الناسُ بحزم أغراضها والتحضر للخروج من المبنى الكبير. لم أستطع التعرفَ على تلك المرأة التي جاءت لي بحديثٍ مربكٍ لم أتبيَّنَ حقيقته حتى اقتربتْ لي وبدتْ أمامي كالثكلى، تلطمُ خدَّها المحمرِّ من أثر الأصابع: لم أجد أميرًا، بحثت عنه في كلِّ مكان.

قالت هذا وقعدت تولولُ على الأرض. كان لكلماتها وقعٌ كبيرٌ على روحي، لم تكن كلماتٍ، كانت صفعاتٍ قويةً، أو رفسةً شديدةَ القوة والثقل سحقت قلبي وحطمت روحي. خرجتُ كالمجنون خارج البناية، كان ثمَّة طريقٌ ترابيٌّ يشق عمقَ الصحراء، ولمحت رجلًا ينتظر عائلته خارج السور، حيث كان يشدُّ الأغراض والحقائب على عربةٍ خشبيةٍ قد صنعها كيفما اتَّفق. سألته وأنا أنظر ذات اليمين وذات الشمال: هل رأيتَ أميرًا؟ لم يلتفت لي ولم يكترث لِما قلت، كان مشدودًا ومنهمكًا في ترتيب أشيائه، كان الوضع رهيبًا والكلُّ يبحث عن خلاص عائلته، عاودتُ السؤالَ وألححْتُ عليه وأقسمت عليه بكلِّ أيمانات المسلمين، قال بدون أن يلتفت أو ينظر في وجهي: رأيت رجلًا متسوِّلًا قد أخذه بذلك الاتجاه وأشار لي نحو قرص الشمس. لم أنتظر كثيرًا، انطلقتُ فورًا في الاتجاه، وأخذت أركض بلا وعيٍ، أركض بخفةٍ لم أعهدها من قبل، كنت أسابق الريح، بدأتُ أتعرق بغزارة، والأفكار السوداوية تنهش روحي مثل كلابٍ مسعورة؛ ماذا سوف يفعل المتسولُ؟ سوف يقتل أميرًا، أو يعمل على إعاقته، سوف يبيعه، هل أراه مرةً أخرى؟ وكان النهار صفيًّا ملتهبًا، وأنا أسرع أكثرَ بالركض، وأنظرُ للأمام

حيث الشمسُ والأرض البور، لا أرى شيئًا ثم بدأت أصرخ: أمير، أمير، ارجع أرجوك. كنت أفكِّر كثيرًا، وأركض أكثر، قلت في سرِّي: سوف يهرب أمير، أنا أعرفه جيدًا، ولدٌ ذكيٌّ، سوف يفلت من قبضة المتسول ويرجع لي. ثم أتراجع عن ذلك، وأراجع أفكاري عن الرجل وعن قوة قبضته، وكيف قد أحكمها على يد طفلي الصغير، لكنَّني أثق بقدرات أمير، أعرف أنَّه كان ماكرًا باللعب، ويفكر جيدًا. أخذت منِّي تلك الأفكارُ كثيرًا من الجهد وبدأتُ أبطئ بالركض، وقد بُحَّ صوتي من الصراخ، ولم يعد فيه شيءٌ من الرجاء، ومن وقتٍ لآخر أرى شيئًا بعيدًا، كتلةً صغيرةً سوداء، لا أتبيَّن ماهيتَها وثم تختفي، وأحيانًا أسمع أصواتًا خفيفةً حين أصرخ: أميير. ثم أراجع سمعي وأجزم بأنَّها تهيُّؤات. بدأ اليأس يتسلل إلى روحي وأنهك جسدي ولم أقدر على مواصلة الركض، وقد جفَّ حلقي من الصراخ، وتكوَّمت على الأرض، لكنَّ شيئًا في داخلي يأبى الخسارةَ، وملامحُ أمير ارتسمت أمامي، وأخذ ينظر لي وهو خائفٌ وكأنه يطلب النجدة. نهضتُ مجددًا ولملمت روحي المتكسِّرة وأخذتُ أصرخ بصوتٍ أعلى: أمير، أمير. ثم لا أعرف من أين جاءت تلك الكلمةُ التي رافقت صراخي اليائس: أمير

إذا كنتَ حرًّا ارجعْ، أمير إذا كنت حرًّا ارجع. وكررت ما قلت كثيرًا بعدد الحجارة حتى لم يبقَ عندي أيُّ أملٍ أو قدرةٍ على المواصلة. تجمعت في روحي انكساراتٌ كثيرةٌ وبدأتْ تختلط مع النزيف في داخلي وتكوّنُ شعلةً من نارٍ زرقاءَ تحاول الخروجَ عن طريق فمي، كنت زامًّا شفتيَّ، لم أحتمل وقد بلغ الحريق حنجرتي. خرجتْ صرخةٌ مشتعلة مثل ريحٍ بركانية تشقُّ سكون الصحراء: أمي....ي... ر. ترنَّحتُ وسقطتُ على الأرض وتكوَّمتُ مثل خرقةٍ بلا وعيٍ ولا إدراك، فقط شبح أمير يقف على رأسي وهو يلهث مثل ضبيٍ مذعور.

رجل الفضيلة

كنَّا ننصتُ وحواسنا مشدودةٌ، بل حتى أروحنا كانت تفترش الأرض وتنصتُ صاغرةً أمام حديث (رائد) المغزول بيد حائكٍ ماهرٍ وساردٍ يعرف طريقه للعقول والأفئدة. كنَّا نقتسم لفافاتِ التبغ بيننا ونتشارك كلَّ اثنين بواحدة، نتنفسُ النيكوتين وحكاياتِ رائد بولهٍ جنونيٍّ، نتخيل كلَّ حركةٍ أو فعلٍ ونعيد تدويره في ذواتنا، أصبحنا نحلم بتطرفٍ، ونعيد اجترارَ أحلامنا مرةً أخرى. كانت أعمارنا وطبيعة أجسادنا تطالب بتلك الرؤى العاطفية، والهمسات الجسدية، مثل كومةٍ من الحطب اليابس تنتظر قدحةً صارمةً تشعل ذلك الإحساس الغريزيَّ العارم. كان رائد يقصُّ علينا ذهابه حيث مضارب الكاولية (الغجر) بزهوِ فارسٍ، وكيف يقضي ليالِ الأنس في أحضان الجميلات كما يصفهنَّ. كنَّا نقوم ونقعدُ مع تمايل جسد رائد في زوبعة الحكَّاء الوردي حيث أرداف النساء والقبلات والأجساد الممشوقة، كنَّا نلتقم أثداء الفتيات

وشفاههنَّ، وتدبُّ فينا أرواحُ الأسلاف وتقف منتصبةً في زوبعة دخان سكائر اللفِّ وتمايلِ يدِ رائد. في أحد ندوات العشق وعلى برودة الرصيف العاري حدَّثنا رائد عن تلك الفتاة الصغيرة التي كانت غريبةَ الأطوار، كانت فتاةً جميلةً وذات عينين كحيلتين وشعرٍ أحمر مثل نار جهنَّم، قال: لم تسمح لي بمضاجعتها إلَّا بعد أن أحضرت لها عشر زجاجاتٍ من البيرة، وأقسمت أن تشرب الزجاجاتِ العشر أولًا وثم تبدأ بالرقص من أجلي، قال: حين أكملت الزجاجة الخامسة خلعتْ ثوبها وحين شارفت على الانتهاء طارت مثل فراشةٍ وأخذت تدور حول خرائب الكاولية وترتفع نحو السماء، ولم يعد بمقدور أيِّ أحدٍ رؤيتها. بعد أيامٍ من حكايته لنا عن تلك الفراشة تمَّ القبضُ على رائد وتبيَّن أنَّه كان لصاً وضيعاً يسرق الأموالَ من مرقد السيد أبو عجلة، وقد رأيته قبل مدةٍ إذ أصبح كهلًا يتكلم عن الفضيلة مع جمعٍ من الرجال وبالشغف نفسه أيضًا.

قبيل الحرب

قبيل حرب عام واحد وتسعين، حيث كنَّا نعيش تحتَ وطأة الخوف والرعب، أخذتني أمِّي وذهبنا لزيارة الإمام عليٍّ (ع). صلَّت أمي هناك كثيرًا وبدأنا ندعو الله أن يبعد شبحَ الحرب عن مدينتنا، رفعت أمي يديها للرحمن ومسحت بباطن كفِّها شباك الضريح، ثم تضرَّعت بالدعاء لآدم ونوح، وعندما همَّت بالخروج تذكرتْ هودًا وصالحًا ومن باب المجاملة أيضًا ذكرتهم بدعائها، إلَّا أنَّها لم تسمع عنهم من قبل. كذلك انحدرنا نحو المقبرة حيث يرقد أسلافنا، فأخذت أمي تشعل أعواد البخور على قبور أقاربها، لكنَّها وضعت ثلاثَ شموعٍ على قبر أمِّها، وقد عاتبتها كثيرًا ولم تدعُ لها، ثم تركتها تنتظرُ القيامة بصمتٍ وعدنا أدراجنا. أخذنا ندورُ على محال الحلويات، كانت أمِّي تنظر للأشياء بخوفٍ وريبة كأنها قبالةَ مكانٍ لبيع الأسلحة، أخذت تسألُ عن أسعار الحلويات وكانت تدمدم بكلامٍ غريبٍ لا يستطيع أحدٌ

سماعه، ثم أخذت نصفَ كيلو من أرخص الأنواع، وأخذنا أوَّل سيارةٍ نحو السماوة وقد خيَّم على وجه أمي الصمت. كانت السيارة الـ(أو ام) تقذف الدخانَ خلفها، وتسير بإصرارٍ نحو الأمام، كنت أجلس بالقرب من النافذة أنظر للطريق، ألوك لقمةَ الحلوى على مهل. قال رجلٌ عجوزٌ في المقدمة: الفاتحة يرحمكم الله لتسهيل طريقنا، قرأ الركاب جميعهم إلَّا ثلاثة جنودٍ متجهّمين.

نظرة

• هناك ما هو أسوأ من الحرب والموت، أو بالأحرى أكثر وحشيةً، هناك ما يجرح القلبَ باستهتارٍ أكثر ممَّا تفعله شظيةٌ مشوهة الأطراف، أعرف أنَّني أغالي كثيرًا في وصف تلك النظرة، لكن هذا ما قرأته في تلك الفترة رغم صغر سنِّي. سنة ١٩٩٣ أي في أشدِّ سنين القحط التي أنبتها الحصار الاقتصاديُّ المهلك وفي شدة العوَزِ والفاقة، جاءت امرأةٌ لم تكن جارةً لنا، لكنَّها معرفةً، وهمست بشيءٍ ما لأمي. حين دخلتْ لبيتنا تقدمت إليها أمي مبتسمةً وأخذت تقبِّلُ خدها. في ذلك الوقت كانت أجسامنا هزيلةً وأرواحنا صامتة، لكنَّنا نبتسم، نحاول شراء بعض الطمأنينة لعبور أيامنا غير المفهومة، كان اليوم في ذلك الوقت لم يختصر على ليلٍ ونهار، بل كان حلبةً مفتوحةً للصراع، صراعٌ من أجل البقاء، صراعٌ محتدمٌ بين ربِّ الأسرة والأفواه الجائعة. همستْ لأمي وسكبتِ الدموعَ مدرارًا، حاولتْ أمي الحفاظَ على ابتسامتها بعد

أن شـحب وجههـا، لكنَّهـا عبثًـا تحـاول، لقـد أخـذتِ الكلماتُ منها روحها وتوقفت عن الحياة. مطَّت شفتيها محاكـاةً للابتسـامة الهاربـة وكشَّـرت عـن أسـنانها كـذبًا. دخلـت أمـي للغرفـة وأخـذت تـدور حـول نفسـها، وتفـرك يـديها فركًـا عنيفًـا، كانـت تفكـر وكأنهـا تحفـر بـالأرض، بدأت تنظـر في وجوهنا واحدًا تلو الآخر، تطرق برأسها نحو الأرض ومرةً تنظر للأعلى، فركتْ يديها بعنفٍ أكثر وتنهدَّت كمن أقبل على موتٍ وشيك، ثم دلفت للمطبخ وأخـذت بقِـدرٍ صـغيرٍ ملأتـه بـالطحين وأخـذت للمـرأة الدامعة تسير بجدٍّ وعلامات الانتصار باديةٌ على محياها. نظـرت المـرأة لقـدر الطحين وانفرجـت أسـاريرها، تبعتهـا للخـارج حيـث تسـير وتعـاود النظـر فـي قـدر الطحـين. استيقظتُ في اليوم التالي على صوت بكاء أخي الصغير الجائع وكانت أمي تفرك يديها بفزع.

الأمنية

ما كاد علي باشي أن يرتشف من استكان الشاي رشفةً أخرى حتى سقط على الأرض وتدحرج عقاله وانزاحَ الشماغ عن رأسه الأشيب. أخذ ينظر لمن حوله نظرةً مستفهمةً تشي عن رحلةٍ ما بعدها رجعة، تنفَّس نفسين وربما ثلاثة ثم أغمض عينيه وصار ساكنًا.

علي باشي المغلوب دائمًا كما يقول حين يحتدُّ الجدال بيننا: آني مغلوب من جابتني أمي. غلبه الموت هذه المرة ولم تعد تتوالى عليه الخسارات. وُلد في بداية الستّينات، خبِرَ الحياةَ عن طريق التعب، عمل في البناء منذ طفولته وقد جافاه الحظُّ دون رجعة (في كلِّ إنسانٍ شيطانٌ وملاك وآني شيطاني أعمى وملاكي أعرج). كان يكرر هذه المقطوعات دائمًا، حين نلتقي في كلِّ ليلة عند أحد الأصدقاء، لم يحالفه الحظُّ بأن ينجب ذريةً تحمل اسمه وتستمر بالكفاح بعد موته. ذهب صديقنا الذي يكبرنا بخمسةٍ وعشرين سنةَ، المتهكم والضاحك دائمًا.

كنَّا نحب مجالسته ونستمع لحديثه الشيق، يسرد علينا بطريقةٍ ساخرةٍ أيام خدمته العسكرية وعمله كبناءٍ أو ندخل في جدالٍ سياسيٍّ عقيمٍ كما يسمِّيه. سألته مرةً: لِمَ لمْ تحاول أن تتبنَّى طفلًا ليسليك وتقضي معه بقيةَ حياتك؟ أخذَ يضحك، ضحك من كلِّ قلبه وقال: أخذتُ زوجتي وذهبنا لإحدى المحافظات، كان هناك دار إيواءِ فقررنا أن نتبنى طفلًا، لكنّهم طلبوا منِّي أن أسجِّلَ بيتي باسمه وأنا أسكن في خربة. في أحد الأيام دخل إلى مطعمٍ وسألهم كم سعر نفرِ الكباب، وحين تبيَّن أنَّ السعر عالٍ سألهم مرةً أخرى: ما عدكم شيش كباب مستعمل؟ كان يحبُّ التهكم ويسخر من كلِّ شيءٍ، وحين نشكو له عن حالةٍ أو حدثٍ يبادر فورًا ويطلق كلمتَه المعهودة: يضيع باللَّبخ. لقد حقق الله له أمنيته التي كانت مطلبه الوحيدَ في أن يموت ميتةً سريعةً يموت وهو واقفٌ، يقول: حين أتخيل أنني مريضٌ ولا أستطيع أن أقضي حاجتي أُصاب بالرعب. لقد حققَ الله له مراده ومات وهو واقفٌ يشرب الشاي.

معجزات أمِّي

كتابة هذا الكلام مفسدةٌ ورذيلةٌ، إثمٌ عظيمٌ، والجميع سوف يقول عنِّي بأني مهرطقٌ إثرَ تلك الكلمات المحرمة، وأنا أعلم يقينًا أنَّها خطيئةٌ، خطيئةُ البوح وليس الفعل، ولم أكذب حين أتكلم، وأقول ما شهدته على مدار أربع عقود. نعم، أنا رأيت كلَّ شيء. كانت لأمِّي معجزاتٌ كما الأنبياء، معجزاتٌ خارقةٌ للطبيعة، تعلم كلَّ شيء، وتفعل أيضًا كلَّ شيء، وأحيانًا تفعل كما يفعل الخيميائيون القدماء، وتحول الترابَ من حالته الاعتيادية إلى شتَّى الأنواع المختلفة. عندما يذهب أبي للحرب كانت، تعلم جيدًا في أيِّ وقتٍ سوف يأتي، أو باتَ جائعًا، أو تعرضت وحدته إلى هجومٍ، تعرف جيدًا من يطرق الباب دون أن تنظر، ومن منَّا من سرق حبَّةَ طماطمَ في ظهيرة بائسة أو أكل سهمَ غيره من قطعة الجبن، هكذا هي تعلم كلَّ شيء. وكانت تضع الدراهم بجانب صرَّةٍ صغيرةٍ من قماشٍ أخضر، فيها ترابٌ جلبته من ضريح

السيد ابن الكاظم، وكان يمثلُ لنا العلاجَ السحريَّ لجميع أنواع الأمراض، وحتى الجروح والكسور التي تُسببها المشاجراتُ مع الأطفال واللعب بالشوارع. في سنِّ العاشرة بدأ يظهر انتفاخٌ في أسفل بطني، في منطقة العانة. قال أبي: هذا فتقٌ في ستارة البطن يحتاج إلى عملية. ابتسمت أمي ابتسامةً مقوسةً توشي بسخرية عدم ثقةٍ بما قاله، ثم جلبت طاسةَ ماءٍ وضعت فيها قليلًا من تراب السيد وقالت: اشرب، شربتُ وهكذا راح الانتفاخ في اليوم الثاني، وبدأت تتفاخر أمام الجميع وتنظر إليهم نظرةَ تعالٍ منتشيةً، ترفع دشداشتي البازة، وتريهم كيف فعل ترابُ السيد فعلته العجيبة مع الانتفاخ. حتى عندما أنجبت إخوتي الصغار كانت حين يأتيها المخاض، تضع من ذلك التراب في الماء وتغسل وجهها ثم تدخل للغرفة وتغلقها وتبدأ تصرخ وحيدةً مثل ذئبةٍ جريحة بدون حقنٍ ولا مغذياتٍ ولا أيِّ شيءٍ، حتى أبي ينتظر في باحة الدار ويدخن بطريقةٍ أسرع من المعتاد، بعدها بدقائق تفتح بابَ الغرفة وتطلب منَّا جلبَ شفرةِ موسِ حلاقةٍ وتقطع الحبلَ السري. ولم تتوقف معجزاتها عن الأمراض والجروح فقط، إنَّها امرأةٌ تعشق الطين، صنعت لنا تنورًا من طين، وعندما كُسرت قدمُ دجاجتنا البيضاء وضعت أمِّي لها

لفافةً من الطين وأعواد التبن، وعندما بدأت أذهبُ للنهر مع الأطفال قالت: إيَّاك أن يدفعك أحدهم وتغرق. ثم أعطتني جرعةً من التراب على لساني وانطلقتُ ولم يستطيع النهر إغراقي، تعلمت السباحةَ مع أوَّل غطسةٍ. وفي أحد الأيام، جاءت جارتنا أمُّ خيرية تطلب العونَ من أمي، كان زوجها الحداد قد أوشك على طلاقها، الرجل يريد أن تنجبَ له ذكرًا، حيث فشلت تلك المخلوقة الثقيلة عن الإتيان بذكرٍ مع بناتها الخمس. قالت لها أمي: لا عليك، انتظري. وكما توقعت كانت الطَّاسة والتراب هما الفيصل: اشربي يا أمَّ خيرية. شربت المرأة الثقيلة وعينها تذرفُ الدموع، وبعدها أنجبت ثلاثةَ ذكورٍ، استشهد اثنان منهم والثالث يعمل حمَّالًا في سوق العتالين. لازمَ أمِّي ذلك التآلف الغريب مع الطين والتراب، وبدتْ أكثر ثقةً مع وصفتها الإعجازية، أصبحت إذا ما كان هناك شيءٌ يستوجب التدخُّلَ أو الإصلاحَ تبادر على الفور وبدون أيِّ نقاشٍ إلى فتح الصرَّةِ الخضراء وإخراج ترابها السحري؛ عطلُ تلفازٍ مثلًا، ثلاجة، بقرة توقَّف حليبها، امرأةٌ عاقر، ولدٌ عاقٌّ لوالديه، بابٌ مكسورٌ، قفلٌ عُجز عن فتحه. وفي أحد الأيام، كان صباحًا عاديًّا، ونسيت الديكة الصياحَ لتعلنَ

بزوغ الفجر، صاحت أمِّي بدلًا عن ديكة العالم إثر ألمٍ شديدٍ في خاصرتها، هرعتْ لجلب الطاسة وصرة التراب، وبعدها ارتفع الضغط وداهمها السكري. شربتِ الكثيرَ من الماء المقدس وأكياسًا من تراب المراقد، انطوى ضهرها بسبب هروب غضروفٍ من بين الفقرات وبدأت لا ترى طريقها، وتجلس في ركنِ الغرفة مثل نبيٍّ خاصمته السماء.

عبد السنار السائق

وقفَ الملازم أمام جسد الرجل المعلق بكوفيةٍ بيضاءَ إلى المروحة، رجلٌ كهلٌ شنق نفسه صباح اليوم الأول من شهر تموز. كان الجسد يتدلَّى متخشبًا، واصطبغ وجه الرجل بزرقةٍ داكنة، وأخرج لسانه الأزرق المنتفخ من طرف الفم، حيث كان الرأس مائلًا لليمين.

عندما أكمل الملازم من تسجيل ملاحظات وأمورٍ حول هذا الحدث أمر رجال الإسعاف بإنزال جثة الرجل وإرسالها لمكتب الطبِّ العدلي، ثم استدار وسأل أحدَ الواقفين: مع من يعيش هذا الرجلُ، هل له عائلةٌ، أبناء؟ وبدأ الملازم ينظر للوجوه المحيطة.

قال رجلٌ كان قصيرَ القامة ومحدودبًا قليلًا: ليس لديه عائلة فقط شقيقةٌ عجوز تعيش معه.

- ردَّ الملازم: أين هي الآن.

- في الغرفة الثانية يا حضرة الملازم. قال الرجل القصير وانسحب خارجَ الغرفة.

خرج الملازم نحو الصَّالة ومن هناك أخذ يمسح بنظراتٍ حادةٍ عن باب غرفةٍ أخرى حتى وقعت عيناه على بابٍ تتدلَّى من أعلاه ستارةٌ من قماشٍ أخضرَ داكنٍ مليئة بالقذارة. أزاحها الملازم ودخل، لم تكن الغرفة مضاءةً جيدًا، فقط مصباحٌ صغيرٌ يتدلى من السقف جعل الرؤيا ضبابيَّةً نوعًا ما. كانت المرأة العجوز تجلس القرفصاء أمام كومةٍ من أسمال ملابس وخرقٍ سوداءَ، كانت ضعيفةَ البنية إلى حدٍّ كبيرٍ، بدت كأعوادٍ من الخشب داخل شوالٍ فارغ، وكان وجهُها شاحبًا، وقد التصق جلده على عظمه، وعيناها غائرتان عميقًا في محجريهما، وتقلب الأسمال ذات اليمين وذات الشمال. قال الملازم:

- مرحبًا يا حاجة، هل المرحوم شقيقكِ؟

لم تنطق العجوزُ بكلمةٍ، بل أومأت برأسها إيجابًا وأخذت تولول بدون أن ترفع رأسها من كومة الملابس.

- لماذا انتحر شقيقك يا حاجة؟ قال الملازم وجلس قبالة المرأة العجوز.

- الله وحده يعرف يا ولدي. ثم غاصت يدها في كومة الملابس.

- هل تعتقدين أنَّ هناك من دفع به لقتل نفسه؟

غمغمت العجوز وثم رفعت خرقةً سوداءَ وأدنتها لوجهها حتى كادت أن تلامسَ جبينها المجعد، ثم شتمتْ أحدهم وعاودت البحث في كومة الملابس ولم تردَّ جوابًا على الملازم.

- يا حاجة، هل هناك من تشاجر مع شقيقك قبل أن نجده معلقًا هكذا في غرفته؟

- المسكين لم يخرج من غرفته منذ أسبوع. قل لي يا ولدي أين العصابة؟

- أيُّ عصابةٍ يا حاجة؟! ردَّ الملازم وانتفض واقفًا، وقد جاء الصوت الصلب من خلفه، إذ كان للرجل القصير، حيث دخل خلسةً لينصت بفضولٍ لما يدور بين الملازم والعجوز.

- يا حضرة الملازم، إنَّها تقصد عُصابةَ الرأس وليس عصابةً من المجرمين. وكشَّر عن أسنانٍ نخِرَةٍ أضاعت مسحةَ الابتسامة الساخرة على شدقيه الذابلتين.

- حسناً، حسنا.

غمز الملازم للرجل القصير وخرجا نحو الصالة، كان الرجل القصير المحدودب قليلًا يسير خلف الملازم واضعًا كفَّيه خلف ظهره، توقف الملازم في باحة الدار

والتفتَ نحو الرجل: قل لي أيُّها الرجل الطيب، هل تعرف شيئًا عن المدعو؟ وأخذ يقلب الدفترَ الصغير.

- عبد الستار السائق حضرة الملازم؟ نعم، أعرف عنه كلَّ شيءٍ، نحن جيرانٌ منذ أربعين سنة.

- آها، أحسنت أيُّها الرجل الطيب، قل لي: ما سبب إقدامه على قتل نفسه.

- إنَّها لعنةٌ يا حضرة الملازم، لعنةٌ قديمة.

- لم أفهم، وضح أيُّها الرجل الطيب.

- نعم حضرة الملازم. ثم استلَّ من جيبه سُبحةً سوداءَ وأخذ الرجل القصير يسقط حباتها واحدةً تلو الأخرى على وتيرةٍ واحدة واسترسل يقول: كانت لعبد الستار زوجةٌ طيبةٌ ومن عائلةٍ غنيةٍ، وكانت تحبُّ عبد الستار السائق حبًّا عظيمًا، لكنَّها لم تحبل، وبعد التحريض من تلك العجوز المكوَّمة في الغرفة، طلَّقها عبد الستار وذهبت المسكينةُ ولم نعرف عنها شيئًا.

- ومتى حدث ذلك أيُّها الرجل الطيب؟

- اه يا حضرة الملازم، قبل خمسٍ وثلاثين سنة.

- بالله عليك يا رجل، وما علاقة هذا الحدث الذي مرَّ عليه دهرٌ، هل هناك شيءٌ آخر.

- نعم حضرة الملازم، ثم تزوج من فليحة وأنجبت له ولدين، كاظم وناظم، وبنتًا اسمها رحيمة، وبعدها ماتت بالسرطان. والمسكين لم يكن محظوظًا أيضًا في أولاده، فقد كان البكر مجرمًا ويثير المشاكل، ويرافق ندماءَ السوء ليتورطَ بعلاقةٍ مع امرأةٍ ويتم قتله على أثرها، وما لبث المسكينُ حتى اكتشف أنَّ ابنته رحيمة حبلى من صعلوكٍ يعمل في مخبزٍ قريبٍ في الحيّ المجاور، وقد فرَّ ذلك العشيق القذر على الفور. قلبَ عبد الستار الدنيا رأساً على عقب بحثاً عن ذلك الوغد، ليجبرَه على الزواج من رحيمة، لكن عبثًا يحاول، فلم يجد له أثرًا أبدا، ثم هربت رحيمة أيضًا بعد أن بدأت بطنها بالانتفاخ. وقام أحد الأولاد في المقهى بشتم ابنه الثاني ونعته بـ(أخو العاهرة)، فلم يطِق سماعَ ذلك، فهاجر في اليوم التالي ولا أحدَ يعرف أين ذهب. عذرًا حضرة الملازم دعني أجلس وأكمل لك، لا أقوى على الوقوف كثيرًا، ثم استرسل الرجل القصير: تبرأ عبد الستار من ابنته تماماً، بعد أن أجبروه أخوته وأبناء عمومته، لكن قلبه كان يتمزق عندما يتذكرها، وكيف له أن ينسى ابنته التي انحدر بها الحال إلى ذلك الوضع المخزي، وكيف أمست ضائعة. اجلس أيُّها الملازم المحترم دعني أكمل لك، لم أنت واقف؟

- لا عليك أيُّها الرجل الطيب أكمل، وتثائب الملازم وحكَّ ذقنه، رأى صندوقًا خشبيًا فقام بسحبه وجلس عليه، وطلب من الرجل أن يكمل.

- نعم يا حضرة الملازم، لكنها بعد ثلاث سنين عادت بصحبة رجلٍ تدَّعي أنها تزوجته ومعها طفلتان، وبعد عدةِ شهورٍ وقعت كارثةٌ أخرى لعبد الستار، لقد اكتشف أنَّ الرجل الذي جاء بصحبة ابنته لم يكن إلَّا قوادًا يعيش على رذيلة رحيمة ويجبرها على بيع جسدها للرجال مقابل حفنة من الدنانير. حاول إجبارها على ترك هذا النذل لكنَّها لم تحتمل وهربت مرة أخرى، وأصبح يسير في الشوارع منكس الرأس متحاشياً تلك النظرات التي توحي بالشماتة.

- آه، كفا أيُّها الرجل الطيب. قال الملازم وأشار للشرطة بالخروج وذهب.

المحتويات

الإهداء..... ٥
الهيامُ نحو تخاديد ٩
آخر يومٍ ٤٣
سيِّدُ باقر العطَّار ٥٥
شجرة رضا ٦٠
الشِّماغ الأحمر ٧٥
حياةٌ وموت..... ٧٨
في ليلة شتاءٍ باردة ٨٨
كما يفعلون ٩٤
يومُ الخلاص..... ٩٦
سعيد الأسمر..... ١٠٠
حلم..... ١٠٤
رجل الفضيلة..... ١٠٨
قبيل الحرب..... ١١٠
نظرة..... ١١٢
الأمنية..... ١١٤
معجزات أمّي ١١٦
عبد الستار السائق..... ١٢٠
المحتويات..... ١٢٧

اقترب صاحب الصوت الجهوري وقذفَ حجرًا بحجم كرة قدمٍ في القبر، سقط على كتفي حتى سمعت تكسُّرَ عظامي، لم أستطع الصراخَ، قلت وأنا أتلوَّى من الألم: لعنكم الله ماذا فعلتم؟! ثم ابتعدتْ أصواتهم وقد كنت أسمعها تأتي متفرقةً من عدة اتجاهاتٍ.

عاد ضجيجُ الفتية ودمدمتهم، طلب الخبيثُ من أحدهم ولّاعةً ومن ثمَّ دلق صاحبُ الصوت الخشن على رأسي كومةً من الأوراق وأعواد الشجر والعشب اليابس. أخذتني رجفةٌ وبدأتُ أحاول مرعوبًا أن أزيح الورق والعشب عن جسدي، هممْتُ بالوقوف، وأخذت أغرز أظافري بالجدار الترابي جاهدًا لعلّي أرفع جسمي وأقف. كان التراب ينهال على رأسي حتى عاجلني أحدهم بكومةٍ أخرى من النفايات وعلب الماء الفارغة، ثم سمعتُ صوتَ الولّاعة فأخذتني نوبةٌ من الصراخ، قال الخبيث: أشعل القبرَ بسرعة.

شجرة رضا / قصص

الدار السرد
DAR AL-SARD BOOK SHOP
شارع المتنبي — سوق الوراقين
07735929484

ISBN 978-9922-8993-1-2